المكتبة الصوفية

الطبقات الصغرى

المسمى لواقح الأنوار القدسية في مناقب العلماء والصوفية

للعارف بالله الإمام عبد الوهاب الشعراني

تحقيق وضبط

أ.د./ أحمد عبد الرحيم السايح

المستشار/ توفيق علي وهبة

الناشر

مكتبة الثقافة الدينية



المسمى لواقح الأنوار القدسية في مناقب العلماء والصوفية

للعارف بالله الإمام عبد الوهاب الشعراني

المكتبة الصوفية



المسمى لواقح الأنوار القدسية فى مناقب العلماء والصوفية
للعارف بالله الإمام عبد الوهاب الشعرانى

تحقيق وضبط

أ.د./ أحمد عبد الرحيم السايح

المستشار/ توفيق على وهبة

الناشر
مكتبة الثقافة الدينية

الطبعة الأولى
١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م

الناشر
مكتبة الثقافة الدينية
٥٢٦ شارع بور سعيد / القاهرة
ت: ٥٩٢٢٦٢٠ - ٥٩٣٨٤١١ / فاكس: ٥٩٣٦٢٧٧
ص.ب ٢١ توزيع الظاهر - القاهرة
E-mail:alsakafa_alDinaya@hotmail.com

رقم الايداع	٢٠٠٥/٧٧٢٨
الترقيم الدولي I.S.B.N	977-341 - 204-0

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الهدى وعلى آله وصحبه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد ..

فإن العارف بالله، القطب الصوفي الكبير، أبو المواهب، الإمام عبد الوهاب الشعراني رحمه الله، كان يدعو إلى الحق، وإلى اقتضاء الصراط المستقيم يسير في دعوته على هدى الكتاب والسنة متمسكًا بهما، داعيًا المتصوفين والعلماء إلى التمسك بهما، وإنكار كل ما عارضهما.

وكان ﷺ ناقدًا لأحوال بعض المنتسبين إلى الصوفية، وهم بعيدون كل البعد عن التحلي بصفات وأخلاق المتصوفة، دخلاء عليها، غرّهم التفاف بعض الجهال حولهم، يلتمسون معرفة الطريق إلى الله على أيديهم، فكيف يعلمونهم وهم جهال بالله. وكان يقول : « من هو جاهل كيف يدعو الناس إلى من لا يعرفه ».

كما انتقد أدعياء التصوف، انتقد أيضًا علماء عصره وفقهاءهم، لتكالب بعضهم على الدنيا، والتفافهم حول السلاطين والأغنياء، ولم يكن همهم الدعوة إلى الله على علم وبصيرة، ولكنهم تركوا فقراء الأمة، وعامة الناس الذين هم في أشد الحاجة إلى من يأخذ بيدهم ويرشدهم إلى طريق الحق، ويعلمهم أحكام دينهم، وشرع ربهم وسنة نبيهم ﷺ ، تركوا هؤلاء والتصقوا بغيرهم الذين ظنوا أنهم سيحققون لهم أغراضًا دنيوية ومكاسب مالية زائلة.

كان من نتيجة ذلك أن حقد عليه كثير من أهل العلم وأدعياء التصوف، فلقى منهم عنتا شديدًا، فأكثروا من التجريح، وصبوا عليه جام حقدهم وغضبهم، فرموه بالكفر والمروق من الدين، وأشاعوا ضده كل نقيضه، وبثوا حوله الشبهات والافتراءات والأكاذيب، ليحطوا من قدره، ويبعدوا الناس عنه. ويبطلوا دعوته. ويشككوا الناس في علمه وورعه وتقواه.

وكان من أكثر وأشفع ما عمل هؤلاء الحقدة والحاسدين، هو دسهم في بعض كتبه كثيرا من البدع والأمور التي تمس عقيدة الرجل ودينه، بل وتمس شخصه وخلقه.

وقد أشار هو في كثير من مؤلفاته إلى وقائع هذا الدس، وقد استطاع في حياته أن يثبت جانبًا من الأقوال التي دست عليه، في بعض كتبه، وشهد له كبار العلماء والعظماء وعارفوا فضله، وأنكروا هذه المدسوسات ، وفي أحيان كثيرة كشفوا عن شخصية من دسوا هذه الأكاذيب..

ولكن ظلت بعض شظايا هذه المدسوسات مخبأة في بعض المؤلفات، لتنفجر في وجه المطالع لها.

وكان أخطرها وأعظمها أثرًا، ما دسه الحقاد والحساد في كتابه الطبقات الكبرى وهو من أهم الكتب لدى رجال التصوف وأنصارهم ومحبيهم وعارفي فضلهم، وغيرهم من أهل العلم.

لذلك ركز عليه الدساسون، وأكثروا من إضافة دسائسهم وأحقادهم ووسائخ أنفسهم، وقذارة فكرهم، وألصقوها زورًا وبهتانًا بالعالم العامل الإمام الشعراني رحمه الله

وهو ﷺ في الحالين مثاب، أو لا مثاب لتأليفه هذا الكتاب القيم، وثانيًا مثاب لما وقع عليه من ظلم وضيم، ويقع إثم الحقدة والحاسدين على أنفسهم. فهم يهدونه الحسنات، ويجنون لأنفسهم السيئات.

فالله ﷻ يعامل الناس على قدر أعمالهم، (فمن يعمل مثقال ذرة خيرًا يره، ومن يعمل مثقال ذرة شرًا يره)[1].

ولقد ظلت هذه المدسوسات كالقذى في العين، تحتاج إلى من يستخرجها ويستأصلها ليبقى للعين نورها وبهاءها، وحسن جمالها.

والحمد لله فقد وفقنا ﷻ بمنه وكرمه، وحسن رعايته وعنايته فقمنا بتنقية كتاب (الطبقات الكبرى) من هذه المدسوسات، وأزلنا عنه هذا القذى، واستللنا هذه الشوائب التي كانت تكدر صفوه، والتي جعلته هدفًا لسهام الناقدين، والناقمين سواء كان ذلك بحسن نية أو سوء طوية.

والله ﷻ أعلم بقلوب عباده.

---

(١) سورة الزلزلة : الآيتان ٧، ٨.

الحمد لله ﷻ، فقد أصبح كتاب الطبقات كما أراد له صاحبه ﷺ، ورحمه وأوسع له في قبره، درة ناصعة، لا يشوبها شائبة، وقد نجت من حقد الحاقدين وحسد الحاسدين.

ندعو الله ﷻ أن يجعل فيه خيرا كثيرا، وأن ينفع به، وأن يكتب لصاحبه الجزاء الحسن، وأن يعفو بفضله وكرمه عنا وعن سائر المسلمين.

وهذا الكتاب الذي بين أيدينا هو (الطبقات الصغرى) للإمام الشعراني رحمه الله وهو امتداد للكتاب الأول (الطبقات الكبرى) الذي انتهى فيه التأريخ لرجال التصوف حتى عام ٨٩١ هـ وقد استكمل الإمام التأريخ لمن جاء بعدهم حتى عام ١٠٠٣ هـ.

ويشتمل هذا الجزء كما ذكر الإمام على تاريخ من أخذ عنهم، ومن لقيهم وأخذ عنهم، ومن لقيهم من أهل المذاهب الأربعة وغيرهم ممن لم يتتلمذ عليهم ولم يأخذ عنهم، وكذا سيرة الأئمة المعاصرين له.

والحمد لله، فقد نجا هذا الكتاب من الدس، ومن التشكيك في عقيدة الإمام، والقول الفصل فيما يؤخذ أو يترك من كتب الفقه أو كتب العقيدة أو كتب التصوف أو كتب الفكر عموما أن ما طابق الكتاب والسنة أخذنا به، وما تعارض معهما تركناه.

يقول ﷺ «تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا بعدي أبدا كتاب الله وسنتي».

وكان علماء الأمة ومجتهدوها رحمهم الله يقولون إن قولنا هذا رأي من جاء بأحسن منه قبلناه، ويقول الإمام مالك ﷺ كل يؤخذ من قوله ويرد إلا صاحب هذا المقام يعني سيدنا رسول الله ﷺ.

وكانوا ﷺ يقولون ما وافق الكتاب والسنة فهو مذهبي، وما عارضهما فاضربوا به عرض الحائط.

ونحن على آثار سيدنا ونبينا ﷺ، وعلماء وفقهاء أمتنا نسير.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

تحقيق

أ.د. أحمد عبد الرحيم السايح — **المستشار/ توفيق على وهبه**

[مقدمة المؤلف]

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وسلم.

وبعد: فهذه طائفة من شيوخ عصرنا ممن لقيناهم، وقرأنا عليهم شيئا من العلم أو أخذنا عليهم أو أخذوا علينا الطريق ممن لم نذكرهم في لواقح الأنوار القدسية في طبقات العلماء والصوفية. وجعلناها فصولاً ثلاثة.

الأول هو هذا . والثاني فيمن لقيناهم ولم نقرأ عليهم، والثالث فيمن لقيناهم ولا زالوا أحياء والله الموفق.

الفصل الأول

[ذكر مناقب جماعة ممن لقيناهم وأخذنا عنهم]

شيخنا وقدوتنا إلى الله تعالى

الشيخ جلال الدين السيوطي

رحمه الله تعالى

كان ﷺ يقول : قد أشاع الناس عني أني ادعيت الاجتهاد المطلق كأحد الأئمة الأربعة وذلك باطل عني، إنما مرادي بذلك: المجتهد المنتسب. فإن الاجتهاد على نوعين:

أحدهما : المجتهد المطلق المستقل، وهذا النوع قد فقد منذ القرن الرابع الهجري. ولا يتصور وجوده الآن.. ولم يدعه أحد بعد الإمام الشافعي إلا ابن حجر خاصة.

النوع الثاني: المجتهد المنتسب للمطلق. وهذا هو المستمر الآن وإلى أن تقوم الساعة، وفي أصحاب الإمام الشافعي من هذا النوع كثير: ابن المزني، وابن سريج، والقفال، وابن خزيمة، وابن الصباغ، وإمام الحرمين، وابن عبد السلام، وتلميذه ابن دقيق العيد، والشيخ تقي الدين السبكي، وولده عبد الوهاب، فإنه كتب مرة لنائب الشام: أنا مجتهد الدنيا على الإطلاق. ولا يقدر أحد أن يرد على هذه الكلمة، وكل هؤلاء مجتهدون منتسبون .

وكذلك القول في أصحاب الإمام مالك، كابن وهب وأضرابه، بلغوا الاجتهاد المطلق على مذهب الإمام مالك. وكذا أبو يوسف ومحمد من أصحاب الإمام الأعظم بلغا الاجتهاد المطلق.

وقال الشيخ جلال الدين ﷺ : ومع ذلك فلم يخرج هؤلاء عن تبعيتهم لإمامهم. فمن أنكر الاجتهاد مطلقا فهو جاهل.

هذا يا أخي على ما ينقله بعضهم عنه في بيان حكم الاجتهاد، وقد كان الشيخ جلال الدين رحمه الله تعالى على قدم السلف الصالح من العلماء العاملين، وكمل العارفين، وكان له مكاشفات غريبة، وخوارق وعلوم جمة، ومصنفات جيدة كثيرة الفوائد.

أرسل إليّ ورقة مع والدى باجازته لى بجميع مروياته ومؤلفاته، ثم لما جئت إلى مصر قبل موته اجتمعت به مرة واحدة، فقرأت عليه بعض أحاديث من الكتب الستة، وشيئا من المنهاج في الفقه تبركًا. ثم بعد شهر سمعت ناعيه ينعي موته، فحضرت الصلاة عليه عند الشيخ أحمد الأبار، يعني في الروضة عقب صلاة الجمعة، وفي سبيل أم المؤمنين عند الجامع الجديد بمصر العتيقة ﷺ.

وقد جمع الشيخ عبد القادر الشاذلي ﷺ بعض مناقبه في جزء، وها أنا ملخص لك عيونه، فأقول وبالله التوفيق:

كان الشيخ جلال الدين رحمه الله تعالى مجبولاً على الخصال الحميدة في العلم والعمل، لا يتردد إلى أحد من الأمراء والملوك ولا إلى غيرهم مدة حياته ﷺ، وكان يظهر كل ما أنعم الله عليه به من العلوم والأخلاق، ولا يكتم منها إلا ما أمر بكتمه، عملاً بقوله تعالى : (وأما بنعمة ربك فحدث) [1] وكان من لا يعرف مقصده يقول : فلان عنده دعوى عظيمة وسيأتي ما يشهد له أوائل خاتمة الكتاب إن شاء الله تعالى.

وكان رضي الله عنه يفتي بتحريم الاشتغال بعلم المنطق وكتبه، وقام عليه جماعة، فقال: وهذه الواقعة من أول وقائعي التي قام على الناس فيها.

وكان ﷺ يقول: ينبغي للمدرس أن يقرأ : تبارك الذي بيده الملك، وسورة الإخلاص، والمعوذتين وفاتحة الكتاب كلما يريد أن يدرس، وينقل فعل ذلك عن شيخ الإسلام علم الدين صالح البلقيني ﷺ .

وكان يقول: أخذت العلم عن ستمائة نفس وقد نظمتهم في أرجوزة،قال: وهم أربع طبقات:

الأولى : من يروي عن أصحاب الفخر بن النجار، والشرف الدمياطي، ووزيره، والحجار، وسليمان بن حمزة، وابن أبي نصر الشيرازي، ونحوهم.

الثانية: من يروى عن السراج البلقيني، والحافظ بن أبي الفضل العراقي ونحوهم، وهي دون التي قبلها في العلو.

---

(١) سورة الضحى : الآية ١١.

الثالثة : من يروى عن الشريف بن الكويك، والجمال الجيلى ونحوهم وهم دون الثانية.

الرابعة : من يروى عن أبى زرعة العراقي، وابن الجوزي، ونحوهما. وهذه لتكثير العدة، وتكبير الحجم وصنف رحمه الله تعالى لما حج وجاور كراسًا على نمط عنوان الشرف في يوم واحد، يحتوي على نحو ومعاني وبديع، وعروض، وتاريخ. وكان ﷺ يقول : لما حججت شربت ماء زمزم على نية أن أكون في الفقه كالشيخ سراج الدين البلقيني، وفي حفظ الحديث كالحافظ بن حجر.

وكان يقول: انقطع الحديث بالديار المصرية بعد الحافظ بن حجر عشرين سنة. فابتدأت في إملاء الحديث مستهل سنة اثنتين وسبعين وثمانمائة في جامع ابن طولون. وأول من أملى الحديث فيه الربيع بن سليمان الجيزي صاحب الإمام الشافعي ﷺ. قال: وإنما اخترت الإملاء يوم الجمعة بعد الصلاة اتباعًا للحفاظ المتقدمين، كالخطيب البغدادي، وابن عساكر، بخلاف ما كان عليه العراقي وولده وابن حجر، فإنهم كانوا يملون يوم الثلاثاء.

قال: وكانت بداية إفتائي سنة إحدى وسبعين وثمانمائة، وخالفت أهل عصري في خمسين مسألة، فألفت في كل مسألة مؤلفًا أثبت فيه وجه الحديث. قال: ولما بلغت مرتبة الترجيح لم أخرج في الإفتاء عن ترجيح النووي، وإن كان الراجح عندي خلافه.

قال: ولما بلغت مرتبة الاجتهاد المطلق لم أخرج في الإفتاء عن مذهب الإمام الشافعي ﷺ، كما كان القفال يفتي بعد بلوغه درجة الاجتهاد المطلق بمذهب الإمام الشافعي. لا باختياره.

وكان يقول: السائل إنما يسألني عن مذهب الإمام - لا عن صحة مؤلفاته - ولا عما عندي أنا من العلم. مع إني لم أختر شيئًا خارجًا عن المذهب إلا شيئًا يسيرًا جدًا. وبقية ما اخترته هو من المذهب، إما قولاً آخر للشافعي قديمًا أو جديدًا، أو وجهًا في المذهب لبعض أصحابه. وكل ذلك راجع إلى المذهب، وليس بخارج عنه.

وله من المؤلفات أربعمائة وستون مؤلفًا مذكورة في فهرست من عشر مجلدات إلى ما دونها، وانتشرت مؤلفاته في البلاد الحجازية والشامية، والحلبية والمصرية، وبصرى، والروم، وبلاد التكرور والمغرب والهند وغيرها.

وكان ﷺ يقول : مما أنعم الله به على هو : أن الجماعة انتصبوا عداوتي وآذوني.

وذلك ليكون لى أسوة بالأنبياء والمرسلين. وكان الشيخ أبو الحسن ﷺ يقول : لما علم الله تعالى ما سيقال في أنبيائه وأصفيائه من الزور والبهتان قضى على قوم بالشقاء، فنسبوا له زوجة ووالدا. ونسبوا للأنبياء السحر والجنون، حتى إذا ضاق ذرع الولى من كلام فيه فيه نادته هواتف الحق: أما ترضى أن تكون لك أسوة بالأنبياء فيما نسب إليّ وإليهم من البهتان، فهنالك يسكن قلب الولى والحمد لله رب العالمين.

وكان يقول ﷺ : قد رزقني الله تعالى التبحر في سبعة علوم: التفسير، والفقه، والحديث، والنحو، والمعاني، والبيان والبديع، على طريقة العرب والبلغاء، وعلى طريقة المتأخرين من العجم وأهل الفلسفات ودون هذه السبعة في معرفة أصول الفقه، والحديث، والتصريف، والإنشاء، والترسل ، والقراءات، والطب والحساب.

وكان ﷺ يقول : قد بلغت مقامات الكمال في جميع آلات الاجتهاد المطلق المنتسب، وصرت بذلك متحدثا بالنعمة، لا فخورًا بالدنيا. وأي قدر للدنيا حتى يطلب تحصيله بالفخر وقد قرب الرحيل ، وبدا الشيب، ونهب العمر. ولو أني أردت أن أكتب في كل مسألة مصنفًا يحتوي على أداتها ثم آدابها وتفاصيلها وفروعها فعلت. وذلك كله بفضل الله تعالى، لا بحولي وقوتي.

وكان يقول: قد استنكر جماعة بلوغي مرتبة الاجتهاد المطلق في الحديث والفقه والعربية، لظنهم انفرادى بذلك بعد الأئمة المجتهدين. وغاب عنهم أنها كانت مجتمعة في الشيخ تقي الدين السبكي ﷺ، وقبله جماعة اتصفوا بها وبالاجتهاد المطلق لكن في الفقه فقط. وأما الجامعون بين هذه الثلاثة علوم فقليل، ولم تجتمع في أحد بعد السبكي غيري.

قال: ولا يُظن أن من لازم المجتهد المطلق أن يكون مجتهدًا في الحديث، مجتهدا في العربية، لأنهم قد نصوا على أنه لا يشترط في الاجتهاد المطلق التبحر في العربية. بل يكتفى فيها بالتوسط، ونصوا في الحديث على ما يؤدى إلى مثل ذلك.

والاجتهاد هو الرتبة التي إذا بلغها الإنسان سمي في عرف المحدثين حافظًا. وقد وصف بالاجتهاد المطلق من لم يوصف بالحافظ، كالشيخ أبي إسحاق الشيرازي، وابن

نصر الصباغ، وإمام الحرمين، والغزالي وقد روى هؤلاء الثلاثة في مؤلفاتهم أحاديث احتجوا بها وفي منكرة. وقد نبه عليها ابن الصلاح وغيره كالنووي.

فعلم أن خفاء بعض الأحاديث لا يقدح في مقام الاجتهاد. إذ ليس من شرط المجتهد أن يحيط علمًا بكل حديث. وقد علق الشافعي ﷺ الأخذ بعدة أحاديث خفيت عليه في صحتها. وبعده صحت عند غيره، بل وقع ذلك لأكابر الصحابة، كعمر بن الخطاب ﷺ، كان يقضي بأشياء تخالف الحديث حتى يحدثوه بها، فيرجع عن أقضيته.

قال: وقد بلغ الشيخ أبو محمد الجويني رتبة الاجتهاد المطلق، وألف كتابه المحيط، والتزم فيه الوقوف مع الحديث، وعدم التقيد بالمذهب ، فوقع للإمام البيهقي منه ثلاثة أجزاء في حياة المصنف، فتعقب فيه أوهامًا حديثية، وأرسل بذلك إلى الجويني، من جملتها: الشيخ أهل أن يجتهد ويتخير، ولكن يحتاج إلى ثبوت الحديث الذي احتج به، فإنه غير ثابت، فانظر كيف سلم له رتبة الاجتهاد مع خفاء أمر تلك الأحاديث عليه.

قال: وكان سراج الدين البلقيني مجتهدًا مطلقًا، وكان من حفاظ الحديث. ووصفه تلميذه ابن حجر بالحفظ، وذكره في طبقات الحفاظ، ولكن لم يلتزم المرتبة العليا من الحفظ والتعديل، بل كان معاصره الحافظ أبو الفضل العراقي أحفظ منه. داخلاً في فن الحديث والفقه، وكانت عربية البلقيني وسطى، وأما بقية من جاء من المجتهدين من بعد السبكي إلى اليوم فلم يكن فيهم من بلغ رتبة البلقيني في الحديث.

وأما قبل السبكي فاجتمع الاجتهاد في الأحكام والحديث لخلق كثير منهم: ابن تيمية، وابن دقيق العيد والنووي، وقبله أبو شامة وقبله ابن الصلاح. أما قبله من المتقدمين فكثير جدًا.

وأما الاجتهاد في العربية فلم يكن بعد ابن هشام من يصلح لأن يوصف به غيري إلا ما بلغني عن العمادي. وقبل ابن هشام خلائق لا يحصون، كأبي حيان، والآمدي. وابن الصائغ، وابن مالك. قال: وغالب الناس لا يعرفون الاجتهاد في الحديث والعربية. وإنما يعرفون الاجتهاد في الشريعة فقط.

وقد قال الإمام الرازي في المحصول ما نصه : المعتبر في الإجماع وفي كل فن من كان من أهل الاجتهاد في ذلك ولم يكونوا من أهل الاجتهاد في غيره. وألف الشيخ كتبا في بيان شروط الاجتهاد المطلق منها: إرشاد المهتدين إلى نصر المجتهدين، ومنها : تيسير الاجتهاد وما له من الإسناد، والرد على من أخلد إلى الأرض وجهل أن الاجتهاد في كل عصر فرض .

وأطال في ذلك ثم قال: فالعبرة في مسائل الكلام بالمجتهد في الكلام، وفي مسائل الفقه بالتمكن والاجتهاد فيه. فالعبرة بأهل الكلام إذا تكلموا في الفقه، لا بأهل أصول الفقه إذا تكلموا في علم الكلام، بل من تمكن في الاجتهاد في الفرائض دون المناسك يعتبر وثاقته وخلافه في الفرائض دون المناسك وقال أبو الحسن البصري: ولا يجوز التقليد في أصول الفقه، كما لا يجوز في أصول الدين، ولا يكون كل مجتهد فيه مصيبا. بل المصيب واحدَ، بخلاف الفقه في الأمرين. قال: والمخطئ في أصول الفقه معذور غير ملوم.

فهذه ثلاث قواعد خالف فيها الفقه، أصول الفقه، لأن أصول الفقه ملحق بأصول الدين، ومطالبه قطعية. انتهى.

فانظر يا أخي إلى كلام الإمام أبي الحسن البصري كيف أطلق الاجتهاد والمجتهد في أصول الفقه وسائر الفنون.

قال: ويشكل على هذه الاجتهادات الثلاث. فأما الاجتهاد في العربية فهو أن يحيط بنصوص أئمة الفن. من سيبويه إلى زماننا هذا، ويحفظ غالب شعر العرب الذين يحتج بأشعارهم في العربية. ولا يضر خفاء بعض ذلك عليه، وليس المراد حفظها عن ظهر قلب، وإنما المراد أن يكون له اطلاع على دواوينهم بحيث يعرف محل الاستدلال بذلك من الكتب، ويكون مع ذلك محيطا بقواعد النحاة التي بنوا تصرفاتهم عليها، غير القواعد المذكورة في واضحات الكتب. فإن تلك كالأصول لهذه القواعد، وهذا لا يعرفه إلا متبحر في الفن: قال: وقد بالغت في هذه القواعد كما تجمع أصول النحو على مصطلح قواعد النحو والفقه.

وأما الاجتهاد في الحديث والفقه فقال الحافظ الزمني : أقل مراتب الحفاظ أن يكون الرجال الذين يعرفهم ويعرف تراجمهم وبلدانهم أكثر من الذين لا يعرفهم.

ليكون الحكم للغالب. وأما ما يحكي عن المتقدمين من قولهم : كنا لا نعد صاحب حديث من لا يكتب عشرين ألف حديث فهو بحسب زمانهم.

وكان الحافظ ابن حجر يقول: الشروط التي اجتمعت في الآن أسمى حافظًا وهي: الشهرة بالطلب، والأخذ من أقوال الرجال، والمعرفة بالجرح والتعديل، والمعرفة بطبقات الرواة ومراتبهم، وتمييز الصحيح من السقيم حتي يكون ما يستحضره من ذلك أكثر مما لا يستحضره ، مع استحضار الكثير من المتون، فهذه الشروط من جمعها فهو حافظ.

قال : وكان الحافظ ابن حجر يحفظ ما ينوف على مائتي ألف حديث، وكان الشيخ عثمان الديمي يحفظ عشرين ألف حديث. وأما أنا فأحفظ مائتي ألف حديث، ولو وجدت أكثر لحفظت. ولعله لا يوجد على وجه الأرض أكثر من ذلك .

واما الاجتهاد في الفقه فقد ألفت فيه كتبًا.

وله ﷺ سبع سؤالات أوردها على علماء العصر، ولم يجب عنها أحد، وهي: ما تقول علماء العصر المدعون الفقه والعلم في هذه الأسئلة:

السؤال الأول: أ - ب - ت - ث - إلى آخرها ما هي هذه الأسماء، وما اسمها، وهل هي أسماء جنس، أو أسماء عناصر. فإن كان الأول فمن أي الأجناس هي ؟ وإن كان الثاني فهل هي شخصية أو جنسية. فإن كان الأول فهل هي منقولة أو مرتجلة، وإن كان الأول فمم نقلت، أمن حروف أم من أفعال أو أسماء أعيان أم مصادر أم صفات. وإن كانت جنسية فهل هي من أعلام الأعيان والمعاني.

السؤال الثاني: من وضع هذه الحروف، وفي أي زمن وضعت، وما مستند واضعها. هل هو العقل أو النقل ؟

السؤال الثالث : هل هذه الحروف مختصة باللغة العربية، أم عامة في جميع اللغات؟

السؤال الرابع : هل الألف والهمزة مترادفان أو لا ؟ وعلى الثاني فما الفرق ؟ وأيهما الأصل؟

السؤال الخامس : لم أجمع علماء اللغة والعدد وغيرهم من المتكلمين على المفردات على الابتداء بحرف الهمزة، وهل هو أمر اتفاقي، أم لحكمة ؟

السؤال السادس : كلمات (أبجد . هوز) إلى آخرها . هل هي مهملة أم مستعملة؟ وما عنى بها، وما أصلها. وكيف نقلت إلى المراد بها، وما ضبط ألفاظها ؟

السؤال السابع : ما حكمها في الابتداء والوقف والمنع من الصرف والتذكير والتأنيث والإعراب واللفظ والرسم وعند التسمية بها، وما حكمها شرعًا عند نقشها على ثوب أو بساط أو حائط أو سقف، هل لها من الحرمة ما للحروف المجتمعة أم لا.

فمن أجاب عن هذه الأسئلة فهو من الرجال، وإلا فلا مزية له على الأطفال. ومن عجز عن ألف، باء، تاء، فلا ينبغي له أن يقرر أبحاثًا. انتهى ما نقلته من خطه ﷺ.

وكان الشيخ العلامة شمس الدين الداودي يقول: رأيت الشيخ وقد كتب في يوم واحد ثلاث كراريس تأليفًا وتحريرًا، وكان مع ذلك يملي الحديث ويجيب عن المتعارض منه بأجوبة حسنة من غير تكلف .

وكان ﷺ يقول : ما أجبت قط عن مسألة جوابًا إلا وأعددت لها جوابًا بين يدي الله تعالى إن سئلت عنه . وكان إذا عارضه أحد في أجوبته يردفها بأجوبة أخرى حتى يبهر العقول.

وغسل قبل موته كتبًا لا يعلم أهل عصره لها نظيرًا. وسرق بعض المعاصرين له كتابًا ونسبه إلى نفسه، ولم يكن عند الشيخ غيره، فألف في ذلك كتابًا سماه " البارق في قطع يد السارق ". ثم قال : لعمري إن المؤلف إنما يطلب ثوابه من الله تعالى. فكيف يطلب أجره على ما لم يعلمه .

وكان ﷺ أعلم أهل زمانه بعلوم الحديث وفنونه، حافظًا متقنا، يعرف غريب ألفاظه، واستنباط أحكامه، وقد بيض ابن حجر عدة أحاديث لايعرف من خرجها ولا مرتبتها. فخرجها الشيخ وبين مرتبتها من حسن وضعيف وغير ذلك .

وأخبرني الشيخ سليمان الحضيري الصوفي ﷺ قال : أرسل شيخ الإسلام الأوجاقي معي عدة أحاديث بيض لها الحفاظ، ولم يعرفوا مرتبتها إلى الشيخ جلال الدين، فسلب رواتها، فردهم الشيخ إلى من لهم رواية عنه، وبين مرتبتها، فذهب شيخ الإسلام إليه. وقبل يده وقال : والله ما كنت أظنك تعرف شيئًا من ذلك ، فاجعلني في حل، فطالما تغذيت وتعشيت بلحمك ودمك.

وأخبرني الشيخ سليمان أيضًا قال : بينا أنا جالس في الخضيرية على باب الإمام الشافعي ﷺ إذ رأيت[١] جماعة عليهم بياض، وعلى رءوسهم عمامة من نور. يقصدونني من ناحية الجبل. فلما قربوا مني فإذا هو النبي ﷺوأصحابه رضي الله عنهم ، فقبلت يده، فقال النبي ﷺ : امض معنا إلى الروضة، فذهبت مع النبي ﷺ إلى بيت الشيخ جلال الدين. فخرج إلى النبي ﷺ وقبل يده وسلم على أصحابه، ثم أدخله الدار، وأجلسه وجلس بين يديه. فصار الشيخ جلال الدين يسأل النبي ﷺ عن بعض الأحاديث، وهو ﷺ يقول : هات يا شيخ السنة . انتهى.

وذكر الشيخ عبد القادر الشاذلي رحمه الله عن الشيخ ﷺ أنه رأى هذه الرؤيا بعينها، وقال له النبيّ ﷺ : هات يا شيخ الحديث كما سيأتي.

وكان ﷺ كثيرا ما يجيب السائل على البديهة ثم يقول : الذهن خوان. افتح الكتاب الفلاني، وعد من الصفحة الفلانية كذا كذا سطرًا تجد المسألة إن شاء الله تعالى كما قلت لك فيفتح الكتاب فيجد الأمر كما قال.

وكان ﷺ يقول بنجاة أبوى النبي ﷺ ، وأنهما في الجنة ووافقه على ذلك جماعة من الحفاظ.

وكان ﷺ يجتمع بالنبي ﷺ يقظة، وأخبرني الشيخ عبد القادر الشاذلي: أنه رأى بخط الشيخ جلال الدين ورقة كتبها لبعض أصحابه حين سأله أن يقضى له حاجة عند السلطان الغوري فيها يا أخي. إنى أرى النبي ﷺ يقظة [٢]. وأخاف أن أجالس السلطان الغوري فيحتجب عني عقوبة لى. ولكن أسأل لك النبي ﷺ . فقلت : يا سيدي. فكم مرة نظرت النبي ﷺ يقظة ؟ قال : بضعا وسبعين مرة. قال: وقد ألف الشيخ كتابًا سماه تنوير الحلك، في إمكان رؤية النبي والملك وذكر فيه من كان يجتمع بالنبي ﷺ وبالملك في اليقظة لا في المنام من الأولياء والصحابة والعلماء، ولم يذكر فيه شيئا مما ذكره في هذه الورقة التي ذكرناها . وكان ﷺ يقول: رأيت النبي ﷺ

---

(١) أى في المنام أو بحس القلب.

(٢) فسر علماء الصوفية رؤية النبي ﷺ بحس القلب بين اليقظة والمنام لأن عظمة النبي لا تسمح لنا بتصور انتقاله من البرزخ لزيارة أحد من الأولياء او غيرهم لجلالة قدره ﷺ .

يقظة فقال لى: يا شيخ الحديث. فقلت: يارسول الله، أمن أهل الجنة أنا؟ فقال: نعم. فقلت: من غير عذاب يسبق؟ فقال النبي ﷺ : لك ذلك.

وكان الشيخ عطية الابياري يقول: قال لى الشيخ جلال لما سألته يقضى له حاجة عند السلطان: يا عطية، إني أجتمع بالنبي ﷺ يقظة، وأخاف أن أجتمع به فيحتجب عني النبي ﷺ. ثم قال له : أكتم عني ذلك، ولا تخبر به إلا بعد موتي.

قال الشيخ قاسم الإمام بمقام الإمام الشافعي رضي الله عنه : ومراد من قال إنه رأى النبي ﷺ يقظة إنكشاف حجاب القلب، وليست كرؤية أحدهما صاحبه الآن.

وأخبرني خادم الشيخ جلال الدين وكان اسمه محمد بن على الحبال. قال: لما وقعت فتنة الشيخ برهان الدين البقاعي في إنكاره على سيدى عمر بن الفارض رضي الله عنه قال لى الشيخ جلال الدين: قم بنا إلى زيارة سيدى عمر، وكان وقت القيلولة. فزرناه وطلعنا إلى سيدى عبد الله الجيوشي فوق الجبل، فرأينا الظل تحت حائط الزاوية نحو ذراع، فجلسنا ساعة فقال لى: تريد أن تصلى في مكة صلاة العصر بشرط أن تكتم على ذلك حتى أموت؟ فقلت : نعم. فأخذ بيدي وقال: غمض عينيك، فغمضتهما. فرمل بى سبعة وعشرين خطوة، ثم قال لى: افتح عينيك. فإذا نحن بباب المعلى. فزرنا السيدة خديجة رضي الله عنها، والفضيل بن عياض، وسفيان بن عيينة وغيرهم. ودخلنا الحرم فطفنا وشربنا من ماء زمزم. ثم قال لى: يا فلان ليس العجب من كون واحد من أهل مصر المجاورين لم يعرفنا. ثم قال لى : إن شئت تمضي معي، وإن شئت تقيم حتى تأتي مع الحجاج. فقلت : بل أذهب معك يا سيدي. فمشينا إلى باب المعلا. وقال لى: غمض عينيك فغمضتهما، فهرول[١] بي سبع خطوات، ثم قال افتح عينيك ففتحتهما فإذا نحن بالقرب من الجيوشي. فنزلنا إلى سيدنا عمر، فركب الشيخ حمارته وذهبنا إلى بيته في جامع طولون. انتهى.

قلت : ورأيت الشيخ مرة ومعه مفاتيح كثيرة فأعطاها لى وقال: هذه مفاتيح علومي فخذها.

---

(١) هذه أمور ليس عليها دليل وقد تكون من وضع الخادم تعظيمًا لشيخه وإكبارا له. خاصة وأن الشيخ لم يخبر أحدا بذلك. كما أن الزيارة داخل مصر أو داخل مكة كانت سيرًا على الأقدام أو ركوب دابة خاصة وأنها كانت لعدة مزارات متباعدة وهذا يستغرق وقتا طويلاً.

وأخبرني شيخنا الشيخ أمين الدين الإمام بجامع الغمري قال: سمعت الشيخ جلال الدين يقول سنة عشرة وتسعمائة: اسمع مني هذا الكلام، ولا تخبر بذلك أحدًا حتى أموت. يدخل سليم بن عثمان مصر افتتاح عام ثلاث وعشرين وتسعمائة، ويبدو خراب مصر، وتنقرض بياضاتها من ذوي البيوت سنة ثلاث وثلاثين، فما يصير أحد يشار إليه منهم، وتخرب خرابًا وسطًا سنة سبع وخمسين. ويقف خراج غالب رزقها، وتخرب خرابًا شديدًا أشد من ذلك سنة سبع وستين.

قلت: وسمعت هذا الكلام من الشيخ أمين الدين سنة خروج السلطان الغوري لقتال السلطان سليم. فأخبرت بعض العلماء الذين ينكرون على الشيخ جلال الدين بذلك فقال: هذا أمر لا يجوز تصديقه. فلما قتل الغوري ودخل عسكر السلطان سليم افتتاح عام ثلاث وعشرين وصاروا يحرقون أبواب بيوت الجراكسة ويقتلونهم. ويسبون حريمهم، فقال الشيخ أمين الدين: اذهب إلى ذلك المنكر فقل له: انظر إلى صدق ما أخبر به الشيخ. لم يخطئ يومًا واحدًا. فقال: وكل شيء يرد فيه، هذا موافقة قدر. فرددت جوابه على الشيخ أمين الدين ، فتبسم وقال: وانشاق القمر للنبي ﷺ بقدرة الله ﷻ أيضًا. وإنما المعجزة فيه إجابة الحق تعالى سؤاله، والانتصار له، وكذلك القول في كرامات الأولياء. ثم قال: يا سبحان الله، والحسد يؤدي إلى هذا كله؟.

قلت: وقد صدق الشيخ في العلامة الثانية والثالثة. ووقف خراج مصر في سنة سبع وخمسين وبقيت العلامة الرابعة. والله تعالى أعلم.

وأخبرني الشيخ عبد القادر الشاذلي: لما بلغ الشيخ جلال الدين أربعين سنة أخذ في التجرد والعبادة والانقطاع إلى الله ﷻ بالاشتغال به صرفًا، والإعراض عن الدنيا وأهلها. حتى كأن لم يعرف أحدًا منهم. وشرع في تحرير مؤلفاته وترك الإفتاء والتدريس. وألف كتابًا سماه التنفيس في الاعتذار عمن ترك الإفتاء والتدريس وأقام في روضة المقياس، فلم يتحول منها إلى أن مات. وبلغنا أنه لم يفتح طاق بيته التي على بحر النيل مدة سكناه.

وكانت الأمراء والأغنياء يأتون إلى زيارته، ويعرضون عليه الأموال النفيسة فيردها، وأرسل له السلطان الغوري خصيًا وألف دينار، فرد الألف، وأخذ الخصي وأعتقه

وجعله خادمًا في الحجرة النبوية، وقال لقاصده: لا تعد تأتينا قط بهدية، فإن الله تعالى أغنانا عن مثل ذلك. وقال له مرة: إن بعض الأولياء كان يتردد على الملوك والأمراء في حوائج الناس فقال: اتباع السلف الصالح في عدم ترددهم أسلم لدين المسلم، وكذلك في رد أموالهم عليهم.

وأخبرني الشيخ أمين الدين أن الشيخ جلال الدين طلع مرة للسلطان قايتباي في حادثة، وعلى رأسه الطيلسان. فقال له السلطان: أنت مالكي حتى تلبس الطيلسان؟ أظنه أنه خاص بالمالكية. فقال له الشيخ: هذه عادة حدثت قريبًا. وكان الطيلسان في الزمن الماضي خاصًا بالشافعية إلى زمن الشيخ تقي الدين السبكي. وطال بينهما الكلام فقال الشيخ: إنما الطيلسان سنة في كل مذهب، ولا يختص بالمالكية. فقال. هذا تكبر وتجبر، وبالغ في النكير. فقال الشيخ: معاذ الله، بل هو سنة رسول الله ﷺ قال: ولم أؤاخذ السلطان على ذلك لكونه محذوفًا عليّ من بعض القضاة ثم إنه تأدب معه في آخر المجلس وانصرف.

فلما كان بعد ايام بلغ الشيخ أن أمامه ابن الكركي قال له : ليس الطيلسان سنة، ولو كنت حاضرا عند قوله: سنة، لقلت له: يعني سنة اليهود. قال الشيخ: بل هو يكفر لكونه رد سنة ثابتة عن النبي ﷺ . ثم إن الشيخ جلال الدين صنف كتابًا حافلاً سماه «الأحاديث الحسان في فضل الطيلسان».

ثم إن السلطان مرض مرضًا شديدًا أشرف فيه على الموت، وطلع له أهل العلم وغيرهم يهنئونه بالسلامة، فلم يطلع الشيخ إليه، فأرسل له قاصده فأبى، فأوقد ابن الكركي عليه النار وقال: هذا عاص لله ورسوله في عدم إجابة ولى الأمر.

قال الشيخ: ثم إن السلطان أرسل إلى قاصده يخوفني في أمور يوقعها بي فقلت لقاصده: قل له: إن لك سلطانا نيفًا وعشرين سنة، ما رأينا مثلك سوءًا فإن لم ترجع عنى وإلا توجهت فيك إلى رسول الله ﷺ يحكم بيني وبينك. فسكت حتى طلع مشايخ الإسلام يهنئونه بالشهر. فاستفتاهم في عدم الطلوع له لسلوك طريق السلف في ذلك. فما منهم أحد نصر الحق وقال بما يلزم من أن عدم دخول العلماء للملوك سنة، وقالوا: هو سنة للسلف الصالح.

فعزلت نفسي من سائر الوظائف التي لهم عليها ولاية، وألفت في ذلك كتابًا سميته "ما رواه الأساطين في عدم المجيء إلى السلاطين". فلما بلغ السلطان ذلك شق عليه. وأرسل إلى " أمير أخور كبير " والإمام الذي يصلي بالسلطان بكلام طيب يطلب مني الطلوع مثلهم، فلم أجبهم لذلك، وأرسلت إلى السلطان رسالة سميتها" الرسالة السلطانية "فيها جملة الأحاديث الواردة في منع العلماء من التردد على السلاطين. فلما قرأها عليه أمير أخور كبير قال السلطان: والله لو أن الشيخ أخذ عصاه وضربني بها لأذعنت له بعد هذا ولم أقابله.

فساء ذلك ابن الكركي، وأخذ يغري على السلطان، فرجع إلى قوله الأول، وصار يتوعدني بالقتل. فقال لى شيخ الإسلام الشافعي: لا بأس أن تتلافى خاطر السلطان بإرسال كلام طيب على لسان أمير كبير، فإننا نخاف عليك من السلطان فقلت له: إني متمسك بقوله ﷺ : لا تزال طائفة من أمتي ظاهرة على الحق حتى يأتي أمر الله. لا يضرهم من خذلهم[١] . ثم إنى توجهت إلى رسول الله ﷺ فمرض بعد يومين. واشتد به المرض إلى أن مات بعد يومين.

ولما عمر السلطان الغوري مدرسته المعروفة بالقبة الزرقاء بعث للشيخ بمشيختها فلم يقبل فقال: نرتب لك جوالى كل شهر فلم يقبل. وكان يعتقده اعتقادًا عظيمًا.

ولما قام عليه صوفية الخانقاه البيبرسية، وكان قد قال لهم: لستم بصوفية. وإنما الصوفي من يتخلق بأخلاق الأولياء، كما يشهد لذلك كتاب الحلية لأبي نعيم. ورسالة القشيري، وغيرهما من الكتب. ومن يأكل للعلوم من غير تخلق بأخلاقهم أكل حرامًا.

فلما اشتد الأمر وسعوا في قتله عند السلطان قال الشيخ: إن رسول الله ﷺ أخبرني أني منصور عليهم. ولم تتغير فيه شعرة واحدة. ثم إن جميع من قام على الشيخ حصل له مقت بين العباد، ومات على أسوأ حال. وقد رأيت أنا بعيني من صار ينصب على من يبيع الدجاج والمأكل ويدخل بها بيته، فلا يعود يخرج حتى يتعب صاحبها وييأس من ثمنها ويأكل حرامًا سحتًا. وبعضهم ابتلى بالإنكار على العلماء والأولياء

---

(١) متفق عليه.

حتى ظهرت عليه إمارات الشقاء عندما يموت، من فقد الشهادة. وزرقة العينين. وسواد الجبهة نسأل الله العافية.

ولما أججوا النار على الشيخ عند السلطان العادل وقالوا له : إنه يحط عليك كثيرًا، قال السلطان: لئن رأيته لأقطعنه قطعًا. فقال الشيخ: إن رسول الله ﷺ أخبرني أن رأسه تقطع في يوم كذا وكذا. وكان الأمر كما قال الشيخ، لم يتخلف يومًا واحدًا، وصدق الشيخ.

قال الشيخ عبد القادر الشاذلي: وامتحن الشيخ المحن الكثيرة، وما سمعته يومًا واحدًا يدعو على من آذاه من الحسدة، ولا يقابله بسوء، وإنما يقول: حسبنا الله ونعم الوكيل. وصنف في ذلك كتابا سماه: «خبر الظلامة ليوم القيامة ».

وأخبرني الشيخ بدر الدين بن الطباخ نفع الله به لما قام الصوفية البيبرسية على الشيخ جلال الدين صنف فيهم كتابًا سألوني أن أعارضه بكتاب فشرعت تلك الليلة فيه، فإذا بورقة وقعت في حجري في الليل مكتوب فيها: عبدي يا مؤمن. لا تؤذ أحدًا ممن حمل علم نبي. فرجعت عن التأليف وعلمت أن الشيخ جلال الدين على الحق.

وكان الشيخ تقي الدين الأوجاقي يحط على الشيخ جلال الدين، فاعترف بفضله واستغفر وقال: الأمور كلها لله تعالى. يعطي العلم لمن يشاء. لا تحجير عليه، ولم يزل يعترف بفضله إلى أن مات.

ومناقب الشيخ كثيرة مشهورة. ولو لم يكن له من الكرامات إلا إقبال الناس عليه في سائر الأقطار وعلى كتبه ومؤلفاته ومطالعتها لكان ذلك كفاية لما اشتملت عليه من العلوم والمعارف.

ومما انفرد به من المؤلفات ولم يسبقه إليه أحد كتاب « المعاني الدقيقة في إدراك الحقيقة » وكتاب «تزيين الأرائك في إرسال نبينا إلى الملائكة » ، وكتاب « أنموذج اللبيب في خصائص الحبيب»، وكتاب«نشر العلمين في إحياء الأبوين » وكتب كثيرة تعلم من كتاب الفهرست.

مات ﷺ في سحر ليلة الجمعة المباركة، تاسع عشر ليلة في جمادى الأولى. سنة إحدى عشرة وتسعمائة، وكان مرضه سبعة أيام بورم شديد في ذراعه الأيسر، يقال:

إنه الخلط الحاد، وقد استكمل من العمر إحدى وستين سنة، وعشرة أشهر، وثمانية عشر يوما. وكان له مشهد عظيم، ودفن في حوش توصون خارج باب القرافة رضي الله عنه وقبره ظاهر يزار، وعليه قبة عظيمة، وعليه قبة عظيمة. نفعنا الله تعالى والمسلمين ببركته وبركة علومه ومدده. آمين.

شيخ الإسلام
الشيخ زكريا الأنصاري

ومنهم شيخنا وقدوتنا إلى الله تعالى الشيخ زكريا الأنصاري رضي الله عنه شارح البهجة والروضة وغير ذلك. انتهت إليه الرئاسة في مصر، حتى أنه لم يبق في مصر أواخر عمره إلا طلبته أو طلبة طلبته. وقرئ عليه شرح البهجة سبعة وخمسين مرة، حتى أتم تحريره، ولم ينقل ذلك عن أحد من المؤلفين وغالبهم يموت عقب إنجاز مؤلفاته من غير تحرير.

وكان رضي الله عنه مهيب المنظر، مع أنه إذا رآه الإنسان امتلأ قلبه أنسا وذلك علامة ولايته، فإن الهيبة قلما تجتمع مع الأنس في شخص واحد، وكان يدرس في علم الفقه والتصوف، ولازمته وطالعت له لما كف بصره عشر سنين كأنها من طيبها كانت سنة، لكوني ما كنت أجد عند أحد غيره ما كنت أجد عنده، بل أقول: طوبى لعين نظرته ولو مرة واحدة.

وكان رضي الله عنه مقبلا على ربه على الدوام، لا تكاد تجده غافلا عن عبادة ربه لحظة واحدة، وكنت إذا أصلحت شيئا في الكتاب الذي أقرأ عليه يصير يقول بخفيف صوت: الله.الله. ولا يمكث غافلا عن الذكر لحظة. وكان يشرح كلام أهل الطريق على أتم حال، ويجيب عنه بالأجوبة الحسنة إذا أشكل على الناس شئ من كلامهم.

وكان يقول : إن الفقيه إذا لم يكن له معرفة بمصطلح ألفاظ القوم فهو كالخبز الجاف من غير إدام.

ولما وقعت فتنة برهان الدين البقاعي في إنكاره على سيدى عمر بن الفارض رضي الله عنه أرسل السلطان إلى العلماء، فكتبوا له بحسب ما ظهر لهم وامتنع الشيخ زكريا رضي الله عنه، ثم اجتمع بالشيخ محمد الاصطمبولي فقال: اكتب وانصر القوم وبين في الجواب، أنه لا

يجوز لمن لا يعرف مصطلح القوم أن يتكلم في حقهم بشر، لأن دائرة الولاية تبدأ من وراء طور العقل لبنائها على الكشف.

وكان ﷺ من أصحاب الهمم العالية، ورأيته بعد بلوغ عمره أكثر من مائة سنة يصلى النوافل حال مرضه قائما، فيصير يميل يمينا وشمالا، لا يكاد أن يتمالك أن يقف من غير ميل. فقلت له يوما: مثلكم يا سيدي لا يكلفه الله تعالى بالصلاة قائما. فقال: يا ولدي النفس من شأنها الكسل، وأنا أخاف أن تغلبني فأختم عمري بذلك.

وكان إذا طول عليه أحد في الكلام يقول: عجل فقد ضيعت علينا الزمان ومكثت أتغذى معه مدة عشر سنين، فما كان يزيد على ثلث الرغيف من خبز خانقاه سعيد السعداء. وكان يقول: إنما خصصتها للأكل من خبزها لكون صاحبها كان رجلا صالحا، وذكرأنه عمرها بإشارة النبي ﷺ.

وكان إذا حضر عنده أكابر العلماء يخفون في نوره. حتى كأنهم أطفال بين يديه. وكان هيبته فوق هيبة السلطان. وقد جالست السلطان الغوري، والسلطان طومان باي بعد الغوري وكانت هيبته ترجح عليهما.

وكان ﷺ كثير الكشف، لا يكاد يخطر في قلبي شئ بين يديه إلا قال لى : قل ما في قلبك. وكنت إذا حصل عندي صداع في رأسي، وتأوهت وأنا أطالع يقول لى : إنو الاستشفاء بالعلم يذهب. فإذا نويت ذلك شفيت ببركة إشارته، لا ببركة إخلاصي. وهذا دليل على إخلاص الشيخ في العلم، فإن الإنسان لا ينوي الشفاء بعمل لا إخلاص فيه: بدليل الثلاثة الذين دعوا الله بصالح أعمالهم لما انحدرت عليهم الصخرة فسدت عليهم فم الغار.

وأخبرني أنه من حين كان شابا وهو يحب طريق الصوفية ويحضر مجالس ذكرهم، حتى كان الأقران يقولون : زكريا لايجئ منه شئ في طريق الفقهاء، لكوني كنت منكبا على مطالعة رسائل القوم، مواظبا على مجالس الذكر، بحيث كان يذهب غالب الوقت في ذلك .

وأخبرني أنه سافر من مصر إلى سيدي محمد الغمري بالمحلة الكبرى وتلقن عليه. وأقام عنده أربعين يوما . وقرأ عليه قواعد الصوفية كاملا له ثم رجع إلى مصر. ﷺ.

وأخبرني ﷺ أنه دخل يوما على سيدى محمد الغمري الخلوة على غفلة، فرأى له سبع عيون، فلما بهت فيه قال: يا زكريا ، إن الرجل إذا كمل صار له سبع عيون بعدد أقاليم الدنيا. قال: ورأيته مرة أخرى جالسا في الهواء في الخلوة قريب من السقف[1].

وقال : ولما اشتغلت بالعلم وبرعت فيه بحمد الله شرحت البهجة، فلما أتممت شرحها غار بعض الأقران فكتب على بعض نسخ الشرح: كتاب الأعمى والبصير. تعريفا بى، بأني لا أقدر على شرح البهجة وحدي، وإنما ساعدني فيه رفيقي، وهو أعمى كنت أطالع أنا وإياه، فاحتسبت بالله ولم ألتفت إلى مثل ذلك، اقتداء بإمامي الشافعي ﷺ في قوله: أحب أن أقرأ هذه العلوم ولا ينسب إلى شيء منها.

قال: وكان تأليفي لشرح البهجة يوم الاثنين والخميس، لكونهما ترفع فيهما الأعمال كما ورد في الحديث، وكان تأليفي فوق سطح الجامع الأزهر .قال: وكان وقتي رائقا من الكدورات النفسانية لقلة علائقي في الدنيا. وكان ظاهري بحمد الله محفوظا من الأعمال الرديئة، وكنت قليل اللهو واللعب. قليل الذهاب إلى مواضع النزهات. وما سكنت قط على نهر النيل، أو خليج، ولكن كان الطلبة إذا أرادوا رؤية البحر أذهب بهم إلى ناحية مسجد الآثار ببركة الحبش ويقرءون دروسهم هناك. وكنت أعوم في النهر كل سنة مرة خوفا من أن ينفك إدماني العوم، فإنه كمال في الرجل والمرأة.

قال ﷺ : وكنت مجاب الدعوة، لا أكاد أدعو على من ظلمني إلا ويقصمه الله تعالى. ولا لمريض إلا شفاه الله ﷻ ،فلما اشتهر ذلك عني أشار علي بعض الفقراء بستر حالي.

وكان ﷺ كثيرا ما يحكي لى عن أحواله ثم يقول لى: يا ولدي، أكتم على ذلك أيام حياتي. فإني لم أنطق بذلك إلا لك، فيحصل لى بذلك غاية السرور، حيث جعلني محلا لموضع أسراره.

وقال لى مرة: هل هنا أحد غيرك؟ فقلت: لا، فقال: أريد أن أذكر لك بداية أمرى لتحيط بذلك علما. فقلت له: نعم، فقال: جئت من البلاد إلى الجامع الأزهر وأنا شاب. فلم أعكف على الاشتغال بشئ من أمور الدنيا، وكنت إذا جعت في الجامع واشتد على

---

(١) ليس لذلك دليل شرعي بسنده.

الجوع أخرج إلى الليل إلى الميضأة، فأغسل قشيرات البطيخ التي حولها فآكلها، وأكتفي بها عن الخبز، فأقمت على ذلك الحال سنين، ثم إن الله تعالى قيض لى شخصا من أولياء الله كان يعمل في الطواحين في غربلة القمح، وكان يتفقدني ويشتري لي ما أحتاج إليه من الأكل والشرب والكسوة والكتب ويقول لي: يا زكريا لا تخف على شيئا. فلم يزل معي كذلك عدة سنين.

فلما كنت ليلة من الليالي أخذ بيدي وأتى بى إلى سلم الوقاد الذي في صحن الجامع الأزهر فقال لي: اصعد إلى آخر هذا الكرسي. فصعدت ولا زال يقول لى: اصعد. حتى صعدت إلى آخره، ثم قال لى: يا زكريا، إنك تعيش حتى يموت جميع أقرانك. ويرتفع شأنك، وتتولى منصب شيخ الإسلام مدة طويلة. ثم انقطع عني فلم أره إلى يومي هذا.

وكانت أول شهرة الشيخ أيام السلطان خشقدم، وذلك أنه كان في باب النصر رجل مشهور بالصلاح يمر عليه السلطان خشقدم، فوقف عليه يزوره، فقال الشيخ للسلطان: إن كان لك حاجة فاسأل فيها الشيخ زكريا. فركب السلطان فزاره. فأسرعت إليه الناس، فمن ذلك اليوم اشتهر بالصلاح. وقال لى: إنها كانت غلطة عظيمة. فقلت له: فما هي؟ فقال: توليتي للقضاء صيرني وراء الناس. مع أني كنت مستورا أيام السلطان قايتباي. فقلت له: يا سيدي إني سمعت بعض الأولياء يقول: كانت ولاية الشيخ للقضاء سترا لحاله، ولما شاع عند الناس من زهده وورعه ومكاشفاته. فقال: الحمد لله، خففت على يا ولدي.

وقال لى مرة: لما سألني السلطان القضاء أبيت، فغمز النقيب وأخرج لى الخلعة ووضعها على ظهري مفاجأة، وطلب لي بغلة أركبها، فقلت: لا أغير حمارتي، فركبت حمارتي وأنا ألبس الخلعة، فجاءوني بالبغلة في أثناء الطريق، وغلبوني على ركوبها فركبتها إلى البيت، وقال لى السلطان مرة: لقد شاورت نفسي أن آخذ بلجام بغلتك وأمضى معك إلى بيتك ولى الشرف بذلك.

قال: ولم يكن أحد يحمل نصحي بالكلام الجافي الخالي من المداهنة مثل السلطان قايتباي، ولو قلته لأحد من العلماء في هذا الزمان لعاداني طول عمري. قال: وكنت إذا

تعذر على مشافهته بالنصح أنعرض له في الخطبة بذلك الأمر خطابا عاما للحاضرين، فيلحق هو بذلك، فإذا سلمت من صلاة الجمعة قام إلى وسلم على وقال: جزاك الله خيرا عنا في هذا النصح.

ثم لم تزل الحسدة يزجون إلى السلطان، ويظهرون له المحبة والتأثر من وعظي هذا له، وفي أنه يرسل إلى يمنعني من التعرض له في الخطبة حتى قال لهم: وماذا أقول لشخص يبصرني بعيوبي وينصحني. ثم إني أغلظت عليه يوما في النصيحة بحضرة بعض الأمراء والأكابر فتطور مني[1]، فتقدمت إليه ثم أمسكت يده وقلت: يا مولانا السلطان، إنما أعظك بأمور لأنها تقضي عليك، وأخاف على جسمك هذا أن يصير فحما من فحم جهنم. فصار السلطان ينتفض ويبكي.

وقلت له مرة في الخطبة: تنبه لنفسك يا من ولاه الله أمور العباد، وتفكر بداية أمرك، وما كنت فيه، وحالك اليوم. قد كنت عدما فصرت وجودا وكنت كافرا فصرت مسلما، وكنت رقيقا فصرت حرا، وكنت مأمورا فصرت أمرا، وكنت أميرا فصرت سلطانا. فلا تقابل هذه النعم بالتجبر والتكبر، وتنسى مبدأك ومنتهاك، ووضع أنفك في التراب حين تموت، ثم يأكلك الدود وتصير ترابا. فبكى السلطان ثم قال لمن حوله من الأمراء: إذا أبعدت هذا فمن يقول لى هذا الوعظ.

وأخبرني يوما أن الخضر عليه السلام كان يجتمع بسيدي على النبتيتي الضرير. فسأله يوما عن أحوال علماء العصر، فصار يقول: ونعم، فسأله عني فقال: ونعم. إلا أن عنده نفيسة، فقال: يتوب منها. ولم يبين له الخضر ذلك. فتنكرت على أفعالي، وصار عندي تطير من جميع أفعالي. فأرسلت أقول لسيدي على: إذا رأيته مرة أخرى فاسأله يبين لك النفيسة لأتوب منها، فرآه فأخبره فقال له: إذا كاتب الأمراء في حاجة يقول لقاصده: قل: هذا الكتاب من الشيخ زكريا. فيسمي نفسه شيخا. قال: فمن ذلك اليوم ما تلفظت بهذه الكلمة.

وقال لى مرة: كنت كثير الاعتكاف في خلوتي فوق سطح الجامع الأزهر فدق على رجل الباب، ففتحت له فقلت: ما حاجتك؟ فقال: قد كف بصري فدلني الناس

---

(١) يعني: تغير.

عليك، وعلى فضلك، تدعو لى بالشفاء فيرد الله على بصري. قال: وكان لى علامة في الدعاء المجاب وغير المجاب، فرأيت علامة الإجابة حين توجهت إلى الله تعالى، ثم خفت الشهرة، فقلت: خذ هذا الدرهم وامض إلى العجمي الذى تحت البرقوقية، فقل له: بعثني زكريا إليك لتعطيني بهذا الدرهم توتيا جافة. قال: فمضى الرجل وأخذ التوتيا ورجع إلى. فقلت له: لا يرد الله عليك بصرك في مصر، وإنما يرده عليك في قطية فسافر، وإذا رجع إليك بصرك فلا ترجع إلى مصر في هذه السنة.

قال الشيخ: فوصل إلى بيت المقدس بصيرا، ومكث يكتب مصاحف وكتب علم، وأرسل لى كذا وكذا كتابا بخطه، ولم يزل بصيرا إلى أن مات.

وكان ﷺ كثير الصدقة سرا وجهرا، ولكن كانت صدقته سرا أكثر، وما رأيت في العلماء والصالحين أكثر صدقة منه، وكان له جماعة يتصدق عليهم كفايتهم من يوم أو جمعة أو شهر، وكان كثيرا ما يعطي كل وارد عليه يوم تهنئته بالشهر، ولكل واحد مقام عنده في العطاء، من القضاة والعلماء وطلبة العلم والمساكين. فمنهم من له كل شهر عشرة أنصاف، ومنهم من له خمسة أنصاف، إلى نصف، إلى عثماني.

وكان غالب الناس يعتقد في الشيخ قلة الصدقة من كثرة إخفائها، وكان إذا جاءه فقير يطلب شيئا يقول لى : هل هنا أحد، فإن قلت له: نعم، قال: قل له يأتينا في غير هذا الوقت. وكان فقير من الصعيد له عليه مرتب كل يوم فيقول: زرت سيدى عبد القادر الجيلاني البارحة، وزرت النبي ﷺ البارحة وزرت أبا الحجاج الأقصري. والشيخ ساكت. فقلت له يوما: إنه لم يلحق هذه الأماكن، فقال الشيخ : يحتمل أن يكون صادقا، فإن الأمر ممكن، فإن الدنيا خطوة مؤمن.

ورأيت له مرة رؤيا حسنة لم أذكرها له، فلما جلست بين يديه للمطالعة في شرح البخاري قال لى من ذات نفسه: قف واذكر ما رأيت الليلة. فقلت: رأيت أني معكم في مركب وأنت جالس على يسار الإمام الشافعي، فقلت لى: سلم على الإمام، فسلمت عليه ودعا لى، والمركب مقلعة في بحر مثل عباب النيل ورأيت المركب كلها مفروشة بالسندس الأخضر، وكذلك القلع وحباله كلها حرير أخضر، ومتكآت خضر. فما

زلنا مقلعين حتى انتهينا إلى جنينة عظيمة أصولها في ساحل البحر، وثمارها مدلاة من شراريف الحائط، فطلعت أنا إلى البستان من المركب، فرأيت جواري حسان يجنين من الزعفران في قفاف بيض. على رؤوسهن كل قفيفة من الزعفران قدر باقي الحزم. قدر أسباطة البلح فاستيقظت فقال لى : إن صدق منامك سوف أدفن بالقرب من الإمام الشافعي لكون المركب جمعتني أنا وإياه.

قال: وكان حاضرا عندنا الشيخ جمال الدين الصافي، والشيخ أبو بكر الظاهري. فلما توفى الشيخ فتحوا له فسقية في باب النصر، فقال الشيخ جمال الدين: أين رؤياك؟ فقلت له : إن الشيخ قال: إن صحت رؤياك. فبينما نحن كذلك وقد كفن الشيخ، وما بقى إلا الحمل، جاء قاصد خير "خير بك" فقال: إن ملك الأمراء ضعيف، ولا يستطيع أن يأتي إلى باب النصر، ومقصده من فضلكم أن تحملوه إلى سبيل المؤمن ليصلي عليه، فحملوه. فلما صلى عليه ملك الأمراء قال: ادفنوه عند الإمام الشافعي تجاه قبر الشيخ نجم الدين الخيوشاني، المطل عليه الشباك، قبالة وجه الإمام الشافعي، فكان الأمر كذلك.

وكانت جنازته مشهودة، ما رأيت أكثر خلقا منها، وقد ألبسني خرقة الصوفية. وأرخى لى العذبة، ولقنني الذكر. فبيني وبين سيدى أحمد الزاهد رجلان، لأن الشيخ أخذ عن سيدي محمد الغمري عن سيدي أحمد الزاهد، ولا أعلم الآن في مصر أعلى من هذا السند، فإن غالب الناس بينه وبين سيدي أحمد الزاهد، أربع رجال أو ثلاثة.

ولما توفى ﷺ أظلمت مصر، فكان فيها كالشمس ﷺ فطوبى لعين رآته مرة. مات ﷺ في ذى الحجة الحرام سنة نيف وعشر وتسعمائة.

شيخ الإسلام

برهان الدين بن أبي شريف

ومنهم شيخنا وقدوتنا إلى الله تعالى شيخ الإسلام برهان الدين بن أبي شريف الشافعي، ﷺ. كان شيخا عالما ورعا زاهدا متمكنا في علوم الظاهر والباطن. صحبته ﷺ نحو خمس سنين.

وكان من المقبلين على الله ﷻ ليلا ونهارا، لا تكاد تسمع منه كلمة واحدة يكتبها عليه كاتب الشمال. وكان لا يتردد إلى أحد من الولاة أبدا. وكان الإنسان إذا عرض عليه بعض محفوظاته يتلجلج من شدة هيبته، فيباسط الصغير حتى يهدأ روعه.

وكان له صبانة في القدس يعمل فيها الصابون، ويتقوت منها، وكان لا يأكل من معاليم مشيخة الإسلام شيئا، وكان قوالا بالحق، أمارا بالمعروف، لا يخاف في الله لومة لائم، وعارضه السلطان الغوري في واقعة فما أفلح بعدها أبدا، وسلب ملكه، فكان الناس يقولون: جميع ما وقع للغوري ببركته. توفى رضي الله عنه سنة نيف وعشرين وتسعمائة رضي الله عنه.

شيخ الإسلام

الشيخ كمال الدين الطويل

ومنهم شيخنا الشيخ كمال الدين الطويل رضي الله عنه، كانت الأنوار تخفق على وجهه. وكان رضي الله عنه إماما في العلوم والمعارف، متواضعا عفيفا ظريفا، لا يكاد جليسه يمل من مجالسته. انتهت إليه الرئاسة في العلم، ووقفت الناس عند فتاويه. وكانت كتب مذهب الإمام الشافعي نصب عينيه لا سيما كتب الأذرعي والزركشي.

وكان من أولاد الترك. وبلغنا أنه كان في أيام صباه يلعب بالحمام في الريدانية. فمر عليه سيدى إبراهيم المتبولي رضي الله عنه وهو ذاهب إلى "بركة الحاج". فقال: مرحبا بالشيخ كمال الدين شيخ الإسلام. فاعتقد الفقراء أن الشيخ يمزح معه. إذ لم تكن عليه أمارات الفقهاء، فمن ذلك اليوم ترك لعب الحمام، واشتغل بالقرآن والعلم، وعاش جماعة سيدي إبراهيم المتبولي الذين ظنوا أن الشيخ يمزح معه حين لقبه بشيخ الإسلام حتى رأوه تولى مشيخة الإسلام، فظهر لهم صدق الشيخ.

ولما دنت وفاة الشيخ كمال الدين رأيت سيدى إبراهيم في المقام فقال لى: قل للشيخ كمال الدين يتهيأ للموت، ويكثر من الاستغفار. فقد دنا أجله[1]. فأعلمته بذلك، فقال: سمعا وطاعة. فعاش بعد ذلك شهرا ونصف شهر.

فانظر يا أخي ملاحظة سيدي إبراهيم له أول أمره وآخره؟ ومناقبه كثيرة توفى بعد دخول ابن عثمان مصر، ودفن بتربته خارج باب النصر، قريبا من المدرسة الحاجبية، رضي الله عنه.

شيخ الإسلام

الشيخ برهان الدين القلقشندي

ومنهم شيخنا شيخ الإسلام الشيخ برهان الدين القلقشندي رضي الله عنه. كان عالما صالحا زاهدا ورعا، قليل اللهو والمزاح، مقبلا على أعمال الآخرة حتى أنه ربما يمكث اليومين والثلاثة لا يأكل. انتهت الرئاسة إليه في علوم السنة وكتب السنة والمسانيد والأجزاء.

وسمعت عليه بقراءة الشيخ شمس الدين المظفري " الفيلانيات " ومسند عبد الله بن حميد. وأجازني برواياتها كلها. وكان رضي الله عنه إذا ركب بغلته وتطيلس. يصير الناس كلهم ينظرون إليه من شدة الهيبة التي كانت عليه.

مات رضي الله عنه قبل دخول السلطان سليم إلى مصر، وكأن الشمس كانت في مصر فغربت رضي الله عنه.

وكانت جنازته حافلة غاصة بالأمراء والصالحين رضي الله عنه.

---

(١) الموت سر من الأسرار التى حجبها المولى جل وعز عن خلقه قال تعالى: (وما تدري نفس ماذا تكسب غدا وما تدرى نفس بأى ارض تموت) وقال سبحانه: (فإذا جاء أجلهم لا يستاخرون ساعة ولا يستقدمون).

شيخ الإسلام
شهاب الدين الشيشيني

ومنهم شيخنا وقدوتنا إلى الله تعالى شيخ الإسلام شهاب الدين الشيشيني الحنبلي ﷺ كان عالما زاهدا تقيا ورعا عفيفا متواضعا. كلما رأيته يدرس العلم على نخ حلف ليس فوقه شيء.

وكان ﷺ إماما في التفسير والمذهب. وكان إذا دخل جامعا وقت صلاة العصر مثلا يصعد الكرسي بعد الصلاة، ويتكلم في تفسير آية أو آيتين بكلام مشحون بالزواجر حتى يبكي الناس، ثم يدعو وينزل.

وكان لا يأكل من معاليم مشيخة الإسلام شيئا، ودخلت له مرة فرأيته يدور مواسير الغزل للحباكين في حارته، ويتقوت منها. وكذلك كان ولده الشيخ عز الدين يفعل لما تولى مشيخة الإسلام. وترك ذرية طاهرة. ﷺ مات سنة تسع عشرة وتسعمائة هجرية.

الشيخ نور الدين الأشموني

ومنهم شيخنا الإمام العالم الصالح الورع الزاهد: نور الدين الأشموني الشافعي ﷺ. كان متقشفا في مأكله وملبسه وفراشه. صحبته نحو ثلاث سنين كأنها كانت سنة من حسن سمته، وحلاوة لفظه، وقلة كلامه، ولم يزل على ذلك حتى مات ﷺ. نظم المنهاج في الفقه وشرحه، وشرح ألفية ابن مالك شرحا عظيما ﷺ.

الشيخ عبد القادر ابن النقيب

ومنهم شيخ الإسلام والمسلمين ابن النقيب، رحمه الله تعالى، وهو الشيخ محيي الدين، واسمه عبد القادر، قرأ العلم على جماعة من الأعلام. منهم الشيخ كمال الدين ابن أبي شريف، وشيخ الإسلام زكريا الأنصاري وأضرابهما تولى قاضي القضاة مرات.

وكان لا يصلي الصبح صيفا ولا شتاء إلا في الجامع الأزهر، يمشي كل يوم من المدرسة الناصرية إليه. وكان ﷺ متواضعا كثير البكاء من خشية الله تعالى. ﷺ آمين.

الشيخ سعد الدين الذهبي

ومنهم شيخنا وقدوتنا إلى الله تعالى العالم العلامة الصالح الورع الشيخ سعد الدين الذهبي الشافعي رضي الله عنه . كان ورده كل يوم ختما شتاء وصيفا. وكان خلقه واسعا. إذا تجادل عنده الطلبة يشتغل هو بتلاوة القرآن حتى يفرغ جدالهم. وكان يقضي جميع حوائجه من السوق ويحملها ولا يمكن أحدا، يحملها معه. ولم تزل القفة بيده إذا مشى وهو يتلو القرآن سرا.

وكان لا يقبل من أحد صدقة على خلاف ما عليه الفقهاء، وكان رضي الله عنه كثير الصدقة. وأوصى بمال جزيل للفقراء والمساكين. توفى رضي الله عنه سنة نيف وعشرين وتسعمائة هجرية، ودفن خارج باب النصر رضي الله عنه.

الشيخ عبد الحق السنباطى

ومنهم شيخنا الإمام العالم العلامة الصالح الورع الشيخ عبد الحق السنباطي الشافعي، رضي الله عنه . كان طارحا للتكلف، انتهت إليه الرئاسة في الفقه والأصول وغيرهما من العلوم. وكنت إذا رأيته شهدت له بالصلاح قبل أن تخاطبه. مات رضي الله عنه بمكة المشرفة، ودفن بباب المعلا، سنة ثلاثين.

الشيخ جلال الدين السكري

ومنهم شيخنا الشيخ الإمام العالم العلامة الشيخ جلال الدين السكري. والد الشيخ أبى الحسن رضي الله عنه. كان من العلماء العاملين، وله القدم الراسخ في علم التصوف والفقه والأصول وغيرها.

وقد أخذ العلم عن جماعة منهم العلامة الشيخ جلال الدين الكبير، والشيخ يحيى المناوي وأضرابهما، وأجازوه بالإفتاء والتدريس وهو ببلاد الفيوم، فأفتى بها ودرس. وانتفع به خلائق لا يحصون.

ثم رحل إلى مصر بأولاده وعياله بإشارة الشيخ عبد القادر الدشطوطي رضي الله عنه، فاستخلفه على عمارة الجامع التي عمرها بمصر وغيرها. فعمرها كلها من فيض فضل الله تعالى من حيث لا يحتسب، واشترى لها أوقافا، وأقام لها الشعائر، ولم يشاركه

أحد في ذلك الأمر لا من طلبة الشيخ ولا من طلبته ممن كان من طلبته وتحت تربيته، فكل الأماكن المنسوبة لسيدى عبد القادر عمارة سيدى الشيخ جلال الدين. لأنها من كسبه واجتهاده، وكان الشيخ عبد القادر، غارقا فيما هو فيه من الجذب لا يفيق إلا قليلا، فالاسم له، والمعنى للشيخ جلال الدين

وسمعته ﷺ يقول مرة للشيخ جلال الدين: إياك أن تدخل في المقام أحدا من أبناء الدنيا، واجعل جميع وظائفه وخبزه للفقراء والمساكين ومتعشقي الركب والواردين. فامتثل الشيخ جلال الدين ذلك، وسار في المقام سيرة عظيمة.

وكان ﷺ يكرم كل وارد عليه من أمير أو فقير، أو غني أو صغير، ويقدم لكل واحد ما يناسبه. وكان كثير الأدب والحياء، كريم النفس، جميل المعاشرة، حلو الكلام، وكأن الله عجن طينة جسده من سائر المحاسن. وكان يتفقد كل من نام عنده في المقام، ويسأل عن القيام بواجب حقه وإكرامه. وبات عنده جماعة واشتروا عشاءهم، فتكدر لذلك غاية التكدر وكان على وظيفة العرب في الكرم والنخوة والمروءة

وكان كثير الشفاعات عند الأمراء وغيرهم، وكانوا يهابونه ويجلونه، وكان مهيب المنظر. عليه خفر العلماء العاملين، والأولياء الصالحين، كثير الصيام والقيام. زاهدا ورعا حفيفا متقشفا في ملبسه ومأكله، لا يدخر شيئا من الدنيا، ولا يبيت على دينار ولا درهم. يكسو الفقراء والمساكين، ويتفقد الأيتام والأرامل، وكثيرا ما يغرف الماجور من الطعام ويضعه على باب الزاوية بعد المغرب، فكل من رآه ذاهبا إلى السوق يشتري عشاءه يقول له: تعال. فيغرف له ما يكفيه ويكفي عياله، ويقول له: توسع بما كنت عازما على شراء عشائك به.

وأوصافه الحسنة تجل عن تأليفي، فأسأل الله أن ينفعنا ببركة أسلافه الطاهرين الكرام العظام آمين. مات ﷺ ودفن بالقبة الكبيرة التي في الجامع الأبيض، وكانت جنازته مشهودة.

ورأيته بعد موته بشهور وهو في نعشه طائر في الهواء حتى جاء إلى مقام سيدى عبد القادر فدخل في شباك القبة، فقلت له: يا سيدي مالك انتقلت. فقال: إن الفسقية التي أنا فيها يدخلها الماء من بركة القرع. فقلت ذلك لولده الشيخ أبي الحسن ﷺ.

فقال: لعل منامك صحيحا. ثم فتح الفسقية فوجد الشيخ عائما بكفنه. فعمل للشيخ دكة خشب ووضعه عليها رضي الله عنه.

الشيخ شمس الدين الدمياطي

ومنهم الشيخ الإمام العالم العلامة شمس الدين الدمياطي، المقيم بخانقاه سعيد السعداء. كان محققا للعلوم، كثير البكاء من خشية الله تعالى، زاهدا ورعا عابدا. لا يكاد ينام من الليل إلا قليلا.

أخذ العلم عن جماعة منهم الشيخ زكريا، والشيخ برهان الدين بن أبي شريف والشيخ كمال الدين الطويل، والشيخ عبد الحق السنباطي، وأخذ التصوف عن سيدي محمد الطنبولي، وعن الشيخ نور الدين الخسني، وكان سمته سمت الصالحين وأعماله أعمال المتقين، وكان يهيب على الفقهاء الذين يتوسوسون في ماء الطهارة ولا يتوسوسون في اللقمة، ويقول لهم : لو عكستم الأمر لأفلحتم .

صحبته نحو خمس سنين، ثم مات، وكانت جنازته مشهودة، وكان عازبا لم يتزوج قط، وكان يطبخ بنفسه. ويفرق على جيرانه، ويطعم طلبته ويقول: ما أحوجني الله إلى النساء. كابدت العزوبة سنة، ثم ذهبت عني شهوة الوطء.

وكان كثير الذكر لله تعالى، لا يكاد يغفل عن قول: الله، الله، الله، في حال درسه. وفي حال عمله الشغل، ويأمر رفقاءه بكتمان ذلك، فلم يظهر الأمر إلا بعد موته رضي الله عنه.

الشيخ شهاب الدين الحسامي

ومنهم الشيخ الإمام الفقيه الصوفي النحوي الشيخ شهاب الدين الحسامي رضي الله عنه. صحبته نحو عشر سنين. فما رأيت وقتا دخل عليه وهو محدث، وكان دائم الطهارة. كثير الصمت والحياء والأدب، يمكث اليومين وأكثر لا يتكلم كلمة لغو، وكان زاهدا ورعا كثير الصيام طويل القيام، يقوم للتهجد من أول النصف الثاني من الليل. وكان نهاره في طاعة الله، إما في علم أو قراءة قرآن أو قراءة أوراده يقول من عاشره: ما ضبطنا عليه ساعة قط هو فيها غافل عن مصالح دنياه أو أخراه. وكان لا يأكل شيئا من صدقات الناس. ولا يقبل هدية من الولاة والقضاة والمباشرين والتجار الذين لا يتورعون في كسبهم.

أخذ طريق التصوف عن جماعة منهم الشيخ على المرصفي ﷺ، وكان يذهب إلى مجلسه كل جمعة. وكان رجلا مهيب المنظر، يتعمم بالقطن من غير قصارة. وثيابه قصيرة على السنة المحمدية، وكان يخدم نفسه، ويشتري حوائجه من السوق بنفسه، ولا يمكن أحدا يحملها معه، وكان العلماء يرجعون إليه في المعقولات، ويعدلونه بابن هشام وابن مالك ﷺ .

مات ﷺ سنة نيف وعشرين وتسعمائة، رحمه الله تعالى.

الشيخ عبد الخالق الميقاتي

ومنهم الشيخ الصالح العالم العلامة الشيخ عبد الخالق الميقاتي، ﷺصحبته نحو خمس عشرة سنة، وكان عالما في مذهب الإمام أبى حنيفة، وله الباع الطويل في علم المعقولات وعلم الهيئة وعلم التصوف، وكان وقته كله معمورا بذكر الله وغيره من الصالحات.

وكان كريم النفس، لا ينقطع عنه الواردون في ليلة من الليالي. وكان الفقراء يحضرونه ليلة الجمعة . يتذاكرون عنده في أحوال الطريق إلى الصباح، وله سماط من أول من شهر رمضان إلى آخره.

وكان دائم الصمت لا يتكلم إلا لضرورة، يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر. لا تأخذه في الله لومة لائم. وكان ﷺ على طريقة الفقراء الأقدمين، لا يعجبه أحد من فقراء الزمان وعلمائه. ويقول: لا ينبغي لأحد أن يتظاهر بطريق القوم إلا إن صدق في طريقهم. وكان يكره لبس الزي ويقول: ليست الطريق بمثل ذلك، وإنما كان السلف يلبسون الصوف والمرقعات لقلة الحلال المناسب لمقامهم ثم يقول: وماذا يغني لبس مئزر الصوف والجبة، وصاحبها ينام الليل، ويفطر النهار، ولو أنه عكس الأمر لكان خيرا له. مات ﷺ ودفن قريبا من جامع الملك. وكانت جنازته مشهودة.

الشيخ شمس الدين الجزيري

ومنهم الشيخ العابد الصالح، العالم الزاهد، الشيخ شمس الدين الجزيري الغمري الشافعي ﷺ . كان على قدم عظيم في حفظ اللسان والجوارح، لا يكاد كاتب الشمال يجد شيئا يكتبه عليه الجمعة وأكثر، وكان وقته كله معمورا بالعلم والعمل

والأوراد، وما سمعته قط يذكر أحدا بسوء، ولا يأكل لأحد من غير المتورعين في مكاسبهم طعاما.

وكان يحسب له ويخرج زكاته على التمام والكمال، وكان كثير الصدقة سرا، ويتفقد جيرانه بالطعام كل ليلة، وكان حلو اللسان، كثير الحياء، كثير الأدب، كثير العلم والعمل، وبالجملة أوصافه الجميلة كثيرة ﷺ.

الشيخ نور الدين بن ناصر

ومنهم شيخنا العلامة حافظ العصر الشيخ نور الدين بن ناصر الشافعي. ﷺ كان يحفظ نصوص الشافعي وأقوال مقلديه عن ظهر قلب، لا يحتاج إلى نظر في كراس. وكان حسن المعاشرة دائم التبسم، لا تكاد تجده إلا متبسما، وكان النور يخفق على وجهه يدركه كل المؤمنين، وكان محفوظه أكثر من الروضة. وكان في تدريسه كالبحر الهدار.

أخذ العلم عن جماعة منهم الشيخ عبد الخالق السنباطي، ومنهم الشيخ نور الدين المحلى. وكتب على مؤلفاتي أحسن كتابة، ومات سنة نيف وعشرين وتسعمائة ﷺ.

الشيخ على الشافعي

ومنهم شيخنا العالم العلامة الشيخ على الشافعي ﷺ. كان يجيب عن المسائل التي يسأل عنها. وكان قل أن يكشف في كراسة، لأن مذهب الشافعي كان نصب عينيه، ومكث يفتي الناس أكثر من خمسين سنة، كما أخبرني بذلك في مرض موته.

وكان ورعا زاهدا قليل الكلام، وربما يمكث اليوم كاملا لا يتكلم بكلمة لغو. وكان يشهد في الصالحين ولا يقضى، وسألوه أن يكون قاضيا فأبى، وكان بيته خاليا من أمتعة الدنيا، لا تكاد تجد فيه غير الإبريق، وتختا خلقا مفروشا تحته. وكان ملبسه إذا دخل بيته هديمات، وعمامته شراميط.

ودخلت عليه في مرض موته فقال: يا ولدي، خير الناس من خرج من الدنيا ولم يأخذ من أجر عمله شيئا، لي خمسين سنة أفتي في هذه البلدة، ومع ذلك لم يتفقدني أحد في هذه الضعفة برغيف واحد، ولا بجديد، ولا بقطعة سكر، فالحمد لله رب العالمين.

مات قريبا من عشرين وتسعمائة، رضي الله عنه.

الشيخ شهاب الدين القسطلاني

ومنهم شيخنا الصالح الشيخ شهاب الدين القسطلاني. كان عالما صالحا محدثا قارئا، وكان من أهل الإنصاف. كل من رد عليه غلطا أو سهوا يزيد فيه محبة وتعظيما. ولما طالعت شرحه للبخاري سألني بالله أن أنبهه على كل موضع وقفت فيه. ولما وضع شيخ الإسلام زكريا الأنصاري شرحا للبخاري أخبرته بذلك، فسألني أن أحضر معه لشرحه، فكل شيء عدل عنه الشيخ زكريا من عبارته أكتبه له، فكنت أجمع له في كل جمعة عدة أوراق، تارة يأتي فيأخذها، وتارة يرسل عبده فأعطيها له.

وكان رضي الله عنه من أزهد الناس في الدنيا، وأحسنهم وجها، طويل القامة، حسن الشيب، يقرأ القرآن بأربعة عشر رواية، وكل صوته بالقرآن يبكي الناس، وكان يقرأ في المحراب فيتساقط الناس من الخشوع والبكاء.

وأقام عند النبي ﷺ سنين، فحصل له جذب، فصنف له كتاب المواهب اللدنية لما صحا، وأوقف خصيا على خدمة الحجرة النبوية.

مات رضي الله عنه في شهر ربيع الأول قريبا من العشرين وتسعمائة هجرية ودفن في المدرسة العينية، قريبا من الجامع الأزهر، رحمه الله تعالى.

الشيخ شهاب الدين السمنودى

ومنهم شيخنا الإمام المحدث الخطيب بالجامع الأزهر، الشيخ شهاب الدين السمنودي الشافعي رضي الله عنه. كان عالما ورعا زاهدا، لم يأكل من معلوم وظائفه الدينية، وإنما كان ينفقه على العيال، ومرض مرة فلم يستنب في الحضور، فرد معلوم ذلك الشهر حين أتوه به.

وكان ﷺ يقول: جهدت أن آكل من معلوم فلم يتيسر لي، إنما آكل من حيث لم أحتسب.

وانتهت إليه الرئاسة في الفتوى مدة طويلة، ثم انتقل إلى المحلة الكبرى. فأقام بجامع السد، فلم يزل يفتي ويدرس في العلم بها إلى أن مات سنة إحدى وعشرين وتسعمائة، ودفن بمقبرة الشيخ الطريثي.

وكان لا يفتي أبدا في الطلاق ويقول: يتهاونون في مسائل الطلاق خلاف الواقع. فيعملون بفتياي بالباطل، ﷺ.

الشيخ شمس الدين الغزي

ومنهم شيخنا الإمام العالم العلامة المفتي في العلوم الشرعية والعقلية الشيخ شمس الدين الغزي، جعله السلطان الغوري إماما في مدرسته بغير سؤال منه، وقدمه على سائر علماء البلد الذين سألوا.

وكان مهابا لا يكاد أحد أن ينظر إليه إلا ارتعد من هيبته. وكانوا يحذرون الصبيان الذين يعرضون عليه محفوظاتهم ويقولون: لا تنظروا إلى وجه الشيخ تذهلون عن حفظكم من هيبته. وكان ﷺ في المحراب غريبا، لا يكاد المقتدون يملون من سماعه ولو قرأ بنحو حزب قرآن.

وكان ﷺ يفتي ويدرس طول النهار على طهارة كاملة. ولم يضبطوا عليه غيبة في أحد من أقرانه ولا غيرهم، سمعته مرة يقول: جميع أعمال العبد إذا قبلها الله تعالى يوم القيامة ربما لا يرضى بها.

الشيخ جمال الدين الصافي

ومنهم شيخنا الإمام العالم العلامة المحقق الشيخ جمال الدين الصافي الشافعي. المدرس والمفتي بالجامع الأزهر ﷺ. كان لم يزل يفتي ويدرس بالجامع الأزهر إلى أن مات رحمه الله تعالى. وتخرج عليه جماعة كثيرة، وهو من أجلاء طلبة شيخنا شيخ الإسلام زكريا ﷺ.

وكان ﷺ قوالا بالمعروف، ناهيا عن المنكر، يواجه بذلك الملوك فمن دونهم. حتى أداه ذلك إلى الحبس والضيق وهو مصمم على الحق، ﷺ .

الشيخ أمين الدين الإمام بجامع الغمري

ومنهم الشيخ الإمام العالم العلامة المحدث الفقيه المقرئ الأصولي النحوي الصوفي الشيخ أمين الدين الإمام بجامع الغمري بالقاهرة ﷺ.

كان زاهدا كريما ورعا، واسطة خير للناس في قضاء الحوائج، وكان يتفقد الأرامل والمساكين بالبر والإكرام، وكان لا يدخل أحد مصر من الأولياء والعلماء إلا ورد عليه ويكرمه ويجله، كسيدي محمد بن عنان، وسيدي محمد المنير، وسيدي محمد بن داود، وسيدي أبو بكر الحديدي، وسيدي محمد الشناوي وسيدي عبد الحليم بن مصلح، وسيدي على بن الجمال وأضرابهم. وهو أول من أخذت عليه الفقه. والحديث، والتفسير، والأصول، والنحو، والسند، وكتب الحديث.

وكان ﷺ كثير العبادة والكشف والكرامات والاعتقاد التام من الخاص والعام. وكان وقته محفوظا من تضييعه فيما لا يعنيه، لا تكاد تجده قط في ليل ولا نهار إلا في طاعة الله.

ومما رأيته له من الكرامات أنني كنت أقرأ عليه في شرح البخاري للقسطلاني. باب حزاء انصيد، فمررت بقوله: وفي التبتل عنز، فقلت له: ماصفة التبتل؟ فقال: إن شاء الله تراه في هذا الوقت، فما مضى درجة إلا والتبتل خارج من حائط، حتى وضع فمه على كتفي، فرأيته، ثم خرج التبتل من باب جامع الغمري والناس ينتظرون الصلاة. فلما انقضت الصلاة قلت لجماعة كانوا هناك: أرأيتم التبتل الذي خرج من المحراب؟ فأنكروا ذلك وضحكوا، فقصصت عليهم القصة مع الشيخ. فقالوا: هذه كرامة له.

وكان يقرأ بالسبع في المحراب بصوت ما سمع السامعون بمصر مثله. ولما ورد عليه أخو السلطان سليم إلى مصر طلبوا له إماما يأتم به، فاتفق أهل مصر على الشيخ أمين الدين، فشاوروا السلطان الغوري عليه فأجازه بذلك، إلى أن رجع إلى الروم، وسمع

قراءته في صلاة الصبح نصراني من مباشري القلعة فأسلم. ورضى قلبه بالإسلام من حسن صوت الشيخ، ورأيته يصلى خلفه إلى أن مات.

وكان الشيخ أبو العباس الغمري يقول: جامعنا هذا جنة، وروحه الشيخ أمين الدين، ومكث الشيخ إماما فيه سبعا وخمسين سنة ما ضبطوا عليه أن الوقت دخل وهو على غير طهر، وما ضبطوا عليه أنه نام عن قيام الليل في صيف، ولا شتاء.

ورأيت جماعة من الخراطين بالقرب من الجامع الأزهر يأتون وقت الصبح يصلون خلفه، وكان يقرأ بالأنغام المختلفة في الصلاة لا يتكلفها. وكان جماعة السلطان الغوري الذين ينشدون عنده يأتون إليه فيتعلمون، وكان إذا مرض يتكلف الوضوء، فرأيته ليلة توفى يزحف إلى ميضأة الجامع وتوضأ، فغلب عليه المرض فوقع في الميضأة بثيابه وعمامته، فطلع وثيابه تقطر ماء فأحرم بالناس صلاة المغرب. وصلى بهم كذلك ولم يترك صلاة المغرب، ثم مات بعد صلاة العشاء تلك الليلة ﷺ .

وكان ملبسه الثياب الزرق، والعمامة القطن من غير قصارة، وله هيبة تؤثر في القلوب، ومع ذلك في غاية التواضع مع العميان والأرامل والمساكين ويقضي حاجتهم من السوق، ويحمل الخبز على رأسه من الفرن، ولا يمكن أحدا أن يحمل ذلك عنه. وكان كل من رآه من الأكابر وهو حامل الطبق ينزل من على فرسه ويقبل يده. ويسايره، ولا يقدر على الركوب حتى يفارقه الشيخ. وكان يجمع الزكاة ويفرقها على المحاويج. حتى كان يرسل لأهلى صريرات إلى بلاد الريف، ولم يأكل منها شيئا. وكان إذا مقت إنسانا لا يفلح بعدها أبدا. مقت نحو سبعة عشر نفسا فرأوا في أنفسهم العبر. ولم يفلحوا لا في أعمال الدنيا ولا في أعمال الآخرة.

وكان كل يوم يفت الخبز اليابس ويسقيه بالشربة، ويجمع العميان والأيتام ويتغذى معهم ولا يأكل وحده إلا لضرورة. وكان إذا قل المرق عن تسقية الخبز يصب عليه من الإبريق ماء ويأكله، ومناقبه ﷺ كثيرة مشهورة.

مات ﷺ في ذى القعدة الحرام سنة تسع وعشرين وتسعمائة ودفن بتربته خارج باب النصر ﷺ، ورأيته بعد موته روى لى حديثا بالسريانية، ففهمت معناه، وهو قوله: روى أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال:« *من واظب على النوم بعد صلاة الصبح ابتلاه الله تعالى بوجع الجنب*». وكان بي وجع الجنب قبل ذلك، وما كنت أعرف سببه.

فتركت النوم بعد الصبح، فزال عني الوجع مع أني ما كنت أنام بعد صلاة الصبح إلا يوم الجمعة لكونها ليلة سهر من العشاء إلى الفجر.

ورأيته مرة أخرى ثاني ليلة من دفنه، وجبهته تقطر دما حتى ظهر لونه من الكفن، فقلت ذلك لولد ابنة الشيخ سيدي « أبو اللطف » فقال: رؤياك صحيحة، فإنا لما أنزلناه القبر صدم جبهته حجر فخرج منه الدم ﷺ وإلى وقتي هذا ما كنت في شدة إلا ورأيته في منامي وحصل لي الفرج، والحمد لله رب العالمين.

الشيخ نور الدين السمهودي

ومنهم العلامة الشيخ الصالح نور الدين السمهودي الضرير، الإمام بالجامع الأقمر ﷺ قرأت عليه كتبا في النحو والفقه والحديث. وكان الخلائق مقبلين عليه، لا تقوم طائفة إلا وتدل عليه أخرى، حتى أن بعضهم أكمل درسه على السراج.

وألف عدة كتب في القراءات وفي النحو، ونظم الأجرومية على روى الشاطبية وشرحها. ورأيته مرات يأكل والناس يقرءون عليه، لا يجد وقتا خاليا للأكل لكثرة اشتغال الناس عليه .

وكان له فروة كبش مغشاة بثوب طرح يلبسها صيفا وشتاء وكانت عمامته من غليظ المحلاوي، يغسلها مرة في السنة.

وكنت إذا دخلت عليه في بيته تذكرت أحوال السلف، ليس فيه طرقة. ولا صندوق، ولا شيء من أمتعة الدنيا، وكان كثير الصمت والخشية لله تعالى، ولا تزال عيناه تهملان الدموع.

وكان ﷺ يقول: ما بقى للفقيه فى هذا الزمان أحسن من الوحدة، وعدم التردد للناس، وما دام الناس عنه غافلون فهو بخير والفتنة كلها في الشهرة وكان يديم التدفي بالنار في الشتاء حتى صارت أوراكه مسودة من ذلك، وطلبوا شيئا يدفئه فقال: مالي وللدنيا وما بقى إلا القليل ونقدم على الله تعالى، وننس كل مؤثر في الدنيا.

مات ﷺ سنة ثلاث وتسعمائة ﷺ .

الشيخ ملا على العجمي

ومنهم الشيخ الصالح العلامة المفتي في العلوم العلامة الشيخ ملا على العجمي الذي كان مقيما بتربة نائب جده خارج باب القرافة، ﷺ، كان إماما في الفقه، والتفسير. والمعقولات، والتصوف. قرأت عليه عدة كتب، وانتفعت بصحبته.

وكان كثير الأدب والحياء، كثير الصمت، لا يكاد يتكلم كلمة واحدة إلا إن كلمه أحد، وكنت أشبهه بسيدي على المرصفي ﷺ في الهيبة والوقار وكان حسن الاعتقاد تابعا هدى أهل السنة والجماعة، محبا لجميع الصحابة، عابدا ناسكا خاشعا خائفا، مجلسه كله مجلس علم وأدب وحياء ووقار، ويجيب على الأئمة المخالفين لإمام مذهبه بأحسن جواب.

مات ﷺ في محل إقامته خارج القرافة، وكانت جنازته مشهودة ﷺ

الشيخ بدر الدين المشهدي

ومنهم الشيخ العلامة المحدث الفقيه الصوفي الشيخ بدر الدين المشهدي ﷺ، كان عالما صالحا كثير العبادة، من صيام وقيام وكف لسان محبا للخمول وعدم نشر الصيت إذا رآى أحدا يقرأ عليه فتح له . وإلا أغلق باب داره، فقلت له يوما: ما أصبرك على الوحدة يا سيدي ! فقال: من كان مجالسا لله تعالى فما ثم وحده، وقد جاوزت الأربعين سنة وما بقى يناسبنا إلا الجد والاجتهاد وعدم الغفلة عن الله تعالى، ثم قال لى: هكذا أدركنا الأشياخ خلاف ما عليه أهل هذا الزمان، فيعلم أحدهم بعض مسائل. فيودون لو عرف بها جميع أهل الأرض.

ثم قال لى: يا ولدي والله إني الآن في غم شديد لفقد تلك الأشياخ. كانت رؤيتهم عبادة[1]، وكان ﷺ يقول: مدح الناس للعبد قبل مجاوزة الصراط كله غرور فلا حول ولا قولة إلا بالله العلي العظيم.

(١) لأنهم يوجهونهم إلى صحيح الدين.

الشيخ نور الدين المحلى

ومنهم الشيخ العالم العلامة محقق الديار المصرية الشيخ نور الدين المحلى الشافعي ﷺ، كان كالجبل الراسي في كمال العقل والهيبة والوقار، غزير الدمعة إذا ذكرت أحوال السلف، وكان مشهورا في مصر بحل مشكلات العبادات في الأصول والفقه والمعاني والبيان وغير ذلك. وتفقه عليه خلائق لا يحصون، منهم الشيخ شهاب الدين عميرة، والشيخ عبد الحميد السمهودي رضي الله عنهما.

لم يزل على نعت الاستقامة من الزهد في الدنيا والاعتقاد الحسن في طائفة الصوفية، عكس ما كان عليه شيخه الشيخ برهان الدين البقاعي، وأخبرني مرة شيخه فقال لى: يا ولدي إنما أنكر على هؤلاء القوم خوفا على الناس أن تتلف عقائدهم بعدم سلوكهم الطريق، وتعذر معرفة كل أحد باصطلاحهم في ألفاظهم، فرأيت التنفير عن كلامهم أحسن للناس وأصلح، وإلا فأنا بحمد الله معتقد في الشيخ محيي الدين بن عربي وسيدي عمر بن الفارض، وبتقدير عدم الاعتقاد فيهما، فإنما أنكرت على العبارة التي نسبت إليهما، وقد لا يكون ذلك كلامهما، وقد دس الملاحدة شيئا كثيرا في كلام الأئمة بغير علمهم[1].

ولما وقعت المحنة أمام السلطان الغوري في أمر الرجل الذي اعترف بالزنا ثم اختلف القضاة الأربعة، أرسل يسأله أن يتولى قاضي القضاة في مذهب الإمام الشافعي بغير سؤال. عبس في وجه قاصد السلطان وقال: قل للسلطان: إن كان على المحلى ضيق عليك فهو يرحل عنك إلى بلاد التكرور، ولم يجب السلطان إلى ذلك ﷺ .

الشيخ شهاب الدين المسيري

ومنهم الشيخ الإمام العالم الزاهد الصالح شهاب الدين المسيري الشافعي ﷺ، كان جبلا راسخا في العلوم الشرعية والعقلية، وهو مع ذلك لا يغفل عن قضاء حوائج الناس عند الأمراء والأكابر، وكانوا كلهم منقادين له لعفته وزهده فيما بأيديهم، فكم أطعم جائعا، وكم كسى عريانا، وكم وزن مهر فقير، وكم أوفى دينا.

---

(١) أشار الإمام الشعراني في كتبه كثيرا عن وقائع الدس ويجب الحذر في ذلك لأن كل ما يخالف الكتاب والسنة لا يأخذ به أهل الفقه ولا أهل التصوف.

كان كثيرا ما يأتيه الفقير يسأله الشفاعة وهو يدرس، فيترك الدرس ويقوم معه ويقول: هذه ضرورة ناجزة، وضرورة الحاجة إلى هذا العلم متراخية، وقد لا يحتاج أحد إلى تلك المسائل التي نبحث فيها.

وكان ﷺ عنه قواما بالليل صواما بالنهار، رث الهيئة في الثياب. مع الهيبة والوقار، صغير العمامة على قبع جوخ، لا تكاد تجده ليلا ولا نهارا إلا مشغولا في مصالح غيره حتى صار سداه ولحمته خيرا ﷺ.

الشيخ أبو النجا الفوى

ومنهم الشيخ الإمام الفقيه المحدث الصوفي المتفنن في سائر العلوم التي بأيدى الناس أبو النجا الفوى ﷺ صحبته سبعة أيام، كان جبلا راسخا في علم القراءات والحديث والتفسير. وكان ﷺ في آخر درسه في الجامع الأزهر ففسر من أول سورة الهمزة إلى آخر القرآن، وتكلم في ذلك المجلس على أربعة عشر علما في كل آية حتى بهر العقول. حضره جميع المدرسين بالجامع الأزهر، وكان ذلك آخر مجالسه، ثم سافر إلى بلاده فمات. وكان له القبول التام عند الخاص والعام، وكان كثير الكرامات.

أخبرني سبطه أن شخصا غمل كعك العيد فقال للشيخ: نريد شيرجا. فأرسل فملأ شيرجا من البحر الذي تحت بلده في مدينة فوه إلى أن اكتفى وقال إني لما غرفت من البحر نظرت إلى الإناء وهو يسيل من جوانبه.

وكان إذا بلغ أهل مصر أن الشيخ وصلت مركبه إلى ساحل بولاق يذهبون إليه أفواجا يتلقونه فرحا به كيوم العيد. وفي ليلة موته شاع في بلاده أنه القطب تلك الليلة، فمكث في القطبية دون الليلة، فذلك كان هجير أصحابه في جنازته هذه جنازة عاشق ليلة وصاله ولم يزالوا على ذلك حتى دفن ﷺ .

وكان كثير الكشف، لا يكاد يخطر على جليسه سؤال إلا قال له : الزم الأدب. فكان لا يتجرأ على مجالسته إلا قليل من الناس.

قلت: وأخذ عنه خلائق طريق القوم. وكان إذا لقن إنسانا يصير يسمع نطق الموجودات كلها والجمادات، وكان لطيف المحاضرات، لطيف المزاح، يكاد إذا سمع صوتا طيبا أن يذوب عشقا، وذلك من علامة القطب، وله نظم شائع كثير . نظم الروضة في

الفقه، ونظم المنهاج، وشرح المغني لابن هشام في ست مجلدات. وأكثر مؤلفاته في التصوف. وله موشحات غريبة منها:

أيـــــــها المـــــــاموس	يطلـــع كالقـــــادوس
مـــــلا وانـــــدق روس	دخـــــان المشــــغل
ودقـــات الطبـــول وافعـــل	لا تفعل تحير فيها العقـول

سطر ما فاتك على طول السنين

يـا عبـد القـدوس	نقعـد وعبـوس
تحمـــد الدبـــوس	وللمسكين تـدوس

إلى آخر ما قال. ومناقبه كثيرة مشهورة بفوة رضي الله عنه.

الشيخ نور الدين الجارحي

ومنهم الإمام العالم العلامة المقرئ المحدث الفقيه النحوي الشيخ نور الدين الجارحي رضي الله عنه . كان قليل الضحك، مهيب المنظر، كثير الصمت قليل المخالطة للناس. ليله ونهاره في طاعة ربه، وكان قد انفرد في مصر بعلم القراءات هو والشيخ نور الدين السمهودي. وكان يقرئ الأطفال تجاه جامع الغمري، وكان إذا نظر إلى الطفل يرعد من هيبته. وكان مذهب الإمام الشافعي كله نصب عينيه، وما دخل عليه وقت إلا وهو على طهارة رضي الله عنه .

الشيخ شهاب الدين بن عبد الكافي

ومنهم الشيخ الإمام العالم العلامة القاضي شمس الدين بن عبد الكافي. كان يقضي في مجلسه خارج باب القدس، والناس يقرءون عليه العلم، وكان لا يأخذ على القضاء أجرا وكان طويلا سمينا، ومحاشمه قدر بطيختين كبيرتين، ومع ذلك كان يتوضأ لكل صلاة من الخمس. وكانت محاشمه دائما مشدودة بفوطة مربوطة في وسطه حتى يقدر على الاستنجاء. وكنت أستدل على دينه وكثرة تقواه بذلك، فإني رأيت من كان بحاله ترك الصلاة والاستنجاء في غالب أوقاته رضي الله عنه .

وما سمعته مدة قراءتي عليه يذكر أحد أقرانه الذين يرون نفوسهم عليه إلا بخير. وكان كثير الصمت، كثير الصيام طلبا للهزال فيزيد سمنة، ومكان حلو المنطق، جميل العاشرة. كريم النفس ﷺ.

الشيخ شهاب الدين الرملي

ومنهم الشيخ الإمام العالم الصالح، خاتمة المحققين بمصر والحجاز والشام الشيخ شهاب الدين الرملي الشافعي الأنصاري ﷺ وبلده صغيرة قريبا من البحر من منية المطار تجاه مسجد الخضر عليه السلام بالمنوفية.

كان ﷺ ورعا زاهدا عالما صالحا حسن الاعتقاد للخلق، لا سيما طائفة الصوفية، يجيب عن أقوالهم بأحسن الأجوبة، ويذكر عنهم المستظرفات من الحكايات. انتهت إليه الرياسة في العلوم الشرعية، وعاش حتى صار علماء الشافعية بمصر كلهم تلامذته. فلا يوجد الآن عالم شافعي إلا وهو من طلبته، أو طلبة طلبته. وأرسلت إليه الأسئلة من سائر الأقطار، ووقف الناس عند قوله أكثر ممن أدركناهم من أشياخه. وكان يخدم نفسه، ولا يمكن أحدا يشتري له حاجة من السوق إلى أن كبر وعجز.

وكان جميع علماء مصر حتى المجاذيب يعظمونه ويجلونه، لاسيما الشيخ نور الدين المرصفي، وسيدى على الخواص رضي الله تعالى عنهما. ورأيت مرة سيدي على الخواص ﷺ وهو يقول: شكر الله فضلكم. فقلت له: ما سبب ذلك ؟ فقال: إنه سمع شخصا من إخوانه يذكرني بعد موتي بسوء فعاداه من أجل. فقلت له: وهل يبلغكم ما يفعله الناس بعد موتكم ؟ فقال: نعم[1]. فقلت ذلك للشيخ شهاب، فقال لى: أمارته صحيحة، وعلق لى ذلك الشخص.

ومن خصائصه أن شيخ الإسلام زكريا أذن له أن يصلح في مؤلفاته في حياته وبعد مماته، ولم يأذن لأحد سواه في ذلك. وأصلح عدة مواضع في شرح البهجة وشرح الروضة في حياة شيخ الإسلام، وأنا حاضر لم أطالع له، يقول من رآه: ما رأيت مثله.

---

(١) هناك خلاف بين الفقهاء في ذلك.

وشرح كتاب الزبد في الفقه شرحا عظيما، وكتبوه وقرأوه عليه. جمع فيه بغالب ترجيحاته وتحريراته. وجمع الخطيب فتاويه فصارت مجلدا. وكان يقول: الشيخ نور الدين الطندتاوي محقق الدرس. والشيخ شمس الدين الخطيب جامع المسائل النوادر في الدرس. وسمعت هذا القول منه مرارا.

وكان ﷺ يحبني أشد المحبة، محبة السيد لعبده، وحصل لى مرة مرض أشرفت فيه على الموت، وجاءني عائدا هو وولده سيدى محمد، فصار الشيخ يدعو وولده يؤمن، وأنا أشهد دعاء الشيخ صاعدا إلى السماء كالصواعق من شدة الهمة والعزم، فما فارقني حتى خلصت من ذلك المرض.

مات ﷺ مستهل جمادى الآخرة سنة سبع وخمسين وتسعمائة، وصلوا عليه يوم الجمعة في جامع الأزهر. وما رأيت في عمري جنازة اجتمع فيها خلائق مثل جنازته، وضاق الجامع من صلاة الناس فيه ذلك اليوم، حتى أن بعضهم خرج وصلى في غيره. ثم رجع للجنازة قريبا من جامع الميدان، خارج باب القنطرة، وأظلمت مصر وقراها يوم موته، لكونه كان مردا للعلماء ، في تحرير نقول المذهب.

وإنما ختمنا هذا الباب به لتأخير وفاته عمن ذكر قبله، وإلا فهو أعلم في اعتقادنا من جميع أقرانه ﷺ .

الفصل الثاني

[فى ذكر جماعة ممن لقيناهم ولم نقرأ عليهم]

فيما يلى ذكر جماعة ممن أدركناهم وحظينا بصحبتهم، من غير أن نقرأ عليهم شيئًا من العلوم.. إما لاستغنائنا عن القراءة عليهم بالقراءة على مشايخهم، وإما لكونهم مخالفين لنا في المذهب، لكنا كنا نراجعهم في وقائع الأحوال رضي الله تعالى عنهم أجمعين.

الشيخ جلال الدين بن القاسم

فمنهم شيخ الإسلام العالم العامل، الورع الزاهد، الشيخ جلال الدين بن القاسم المالكي ﷺ. صحبته سنتين، وترددت عليه كثيرًا، وانتفعت بلحظه وحسن سمته، وكان كثير المراقبة لله تعالى في أحواله. وكان أوقاته كلها معمورة بذكر الله عز وجل

شرح المختصر والرسالة، وانتفع به خلائق لا يحصون. ولاه السلطان الغوري مكرهًا. وكان حسن الاعتقاد في طائفة القوم. ولما أنكر الشيخ محمد التكروري المالكي على سيدى عمر بن الفارض قال له : يا محمد، مالك وللسم تجربه في نفسك. فلم يرجع عن إنكاره، فما مضى ثلاثة أيام إلا وفر الناس من ذلك التكروري، ولم يعد أحد يقرأ عليه علمًا.

وكان يحفظ مدونة مذهب الإمام مالك وشرح مذهبه عن ظهر قلب، وأقبل عليه أهل مصر إقبالاً عظيمًا قبل إنكاره، ثم خرج إلى بلاده فقتل في الطريق.

وكان الشيخ جلال الدين أكثر أيامه صائمًا، لا يفطر في السنة إلا العيدين وأيام التشريق وكان حافظًا لسانه في حق أقرانه، لا يسمع أحدًا يذكرهم إلا ويجلهم ويقول: نفعنا الله تعالى ببركتهم رضي الله عنه .

الشيخ نور الدين الطرابلسي

ومنهم شيخ الإسلام المجمع على صلاحه وعلمه وزهده وصيامه وضبط لسانه، الشيخ نور الدين الطرابلسي. كان متفننًا في العلوم، وكتب لى على عدة من مؤلفاتي، وزارني كثيرًا في بيتي لما انقطعت عنه لعذر، فكنت أكاد أذوب من الحياء منه.

وكان ﵁ متواضعًا حسن الظن بالمسلمين، وكان يـؤذن في شباك زايوتـه عنـد كل وقت من الخمس بصوت حسن وخشوع وتدبر أيـام ولايتـه إلى أن مـات. وكـان لا يأكل قط من معلوم محكمته شيئًا مـع أنـه ولى كرهًا. وكـان كثـير الصدقـة سـرًا وجهرًا.

ولما عزلـه بعض قضاة العساكر لم يـزل ملازمًـا بيتـه علـى النسـك والعبـادة والإفتاء. والتدريس إلى أن مات.

وأنكر عليه بعض قضاة الأروام لإفتائـه بمذهبـه الراجح عنـده، وكاتبوا فيـه السلطان فأمر بنفيـه أو قتلـه، فوصل المرسـوم بعـد موتـه، بعـد أن دفنـاه، فكانت هـذه كرامة ﵁.

ولما اشتدت المحنة عليه قبل موته بثلاثة أيام رأيت في المنام لوحًا نـزل مـن السماء في سلسلة تجاه بيت الشيخ محب الديـن بـن الدهانـة مكتـوب فيـه: أيدنـا الشيخ علـى الطرابلسي بالشيخ محب الديـن بـن الدهانـة. فكـان الأمـر كذلك، وحصل علـى يديـه الفرج والسرور ﵁.

الشيخ شمس الدين الحنفي

ومنهم سيدنا ومولانا شيخ الإسلام شمس الدين الحنفي السرسـي ﵁. صحبتـه نحو عشرين سنة فما أظن كاتب الشمال كتب عليه فيها شيئًا، وكـان ﵁ لا يكـاد يسمع منه كلمة لغو.

وأخـبرني ﵁ أنـه صلـى الصبـح بوضـوء العتمـة أربعـين سـنة. وأخـبرني جماعـة كانوا يقرءون عليه أن من كراماته أن الله يأخذ سمعه إذا كلمه أحد بغيبة أو كلام فاحش حتى كأنه أصم. وهذا حفظ من الله العظيم مـا سمعنـاه إلا مـن سيدى محمـد بن زيد بالنحارية ﵁.

وكـان عالمًا بالقراءات السبع، ولاه السلطان الغوري مشيخة الإسـلام كرهًا عليـه. وكان عامة ليله في بكاء ومراقبـة وتـهجد إلى الصبـاح، فيكحـل عينيـه، ويدهـن وجهـه حتى كأنه بات ليله نائمًا. وشرح كتاب المختار شرحًا عظيمًا وسافر إلى مكـة المكرمـة فمات بها ﵁.

الشيخ شمس الدين التناوي

ومنهم الشيخ الإمام العلامة شمس الدين التناوي المالكي رضي الله عنه المقيم في المدرسة الشيخونية. شرح الرسالة شرحًا عظيمًا، وشرح عدة كتب، لم يزل على قدم الزهد والورع ومحبة الخمول وعدم التردد على الأكابر إلى أن مات. وكان وقته كله معمورًا بالعلم والعمل والأوراد، ما زرته قط إلا ورأيته مشغولاً بالله عز وجل .

وأخبرني جماعة من الصوفية من جيرانه أنه لا ينام من الليل إلا قليلاً على الدوام، وكان كثير الصيام، وكان لا يأكل لأحد من الظلمة وأعوانهم شيئًا. وأجمع الناس على جلالته وتحريره لنقول مذهبه، وحفظ جوارحه الظاهرة والباطنة رضي الله عنه.

الشيخ شهاب الدين بن الحلبي

ومنهم الشيخ الإمام العالم الصالح الناسك الزاهد المجمع على جلالته الشيخ شهاب الدين بن الحلبي الحنفي رضي الله عنه. كان على جانب عظيم من الخشية والخوف من الله عز وجل ، وحلف لا يأتيني للزيارة إلا ماشيًا ووفى بذلك إلى أن مات.

وكان كثير الصدقة على الفقراء والمساكين، لم يكن في أقرانه أكثر صدقة منه، وكان حسن الاعتقاد في طائفة الفقراء والمجانيب وأرباب الأحوال كثير الحياء والحلم والعفو والصفح. لا يواجه أحدًا بما يكره ولو فعل معه ما فعل. ورأى مرة شخصًا يشتم آخر، فوقف وقال: يا أخي تأدب مع الملكين الكاتبين. أيسرك أن تلقى يوم القيامة هذه الألفاظ في صحيفتك؟ فاستغفر الشخص وقبل يد الشيخ.

وزرت أنا وإياه رأس الحسين بن على بن أبى طالب رضي الله عنهما، وكان عنده شك أن الرأس هناك. فلما أخذ الشيخ في التوجه إلى حضرة الإمام الحسين رآه مقطوع الرأس فقال: يا إمام، أين رأسك؟ فسمع الصوت من داخله يقول: إن رأسي في مصر. وعمر عليها كطلائع بن رزيك مسجدًا عظيمًا.

فأفاق من التوجه. وأخبرني بالقصة، ثم ثقلت رأس الشيخ. فبينما هو بين النائم واليقظان إذا رأى الإمام الحسين خرج من الضريح، ودخل حائط القبة، وصار يمشي. ونظر الشيخ يتبعه إلى أن دخل الحجرة النبوية الشريفة فقال: يا رسول الله: إن أحمد بن الحلبي وعبد الوهاب الشعراني يزوران رأس الحسين. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : تقبل الله

منهما. ثم أفاق الشيخ فتواجد فوقعت عمامته وقال: قد تحققت أن رأس الإمام ههنا. وما زال يزورها إلى أن مات ﷺ.

وكتب على عدة من مؤلفاتي أحسن كتابة، ورأى في كتابي العهود موضعًا لم يفهمه فأراد أن يصلحه فنام فسمع قائلا يقول له: إن أصلحت في هذا الكتاب شيئًا سلبناك الإيمان، فجاءني بكرة النهار وهو يرعد، وحكى لى القصة، فقلت: مراد القائل: سلب إيمانك بصدق عبد الوهاب، وهذا أمر لم يكلفك الله به، فقال: فرجت عني فرج الله تعالى عنك كرب يوم القيامة، ثم قلت له: مرادي بهذا الكلام كذا وكذا. فكشف رأسه واستغفر وقال: أنا جاهل بمصطلح القوم.

وكان مرضه الذي مات فيه حصر البول، فلم يزل إلى أن مات. وكانت جنازته حافلة بالأمراء والعلماء والتجار والقضاة، حتى ما وجد أحد في باب النصر مكانا خاليًا من الناس، ودفن خارج باب النصر، تجاه المدرسة الحاجبية، وقبره ظاهر يزار، ﷺ. ونفعنا الله ببركاته في الدنيا والآخرة.

الشيخ شهاب الدين البرلسي

ومنهم الإمام العلامة المحقق الشيخ شهاب الدين البرلسي، الملقب بعميرة الشافعي. ﷺ صحبته نحو عشرين سنة، وكان عالمًا زاهدًا حسن الأخلاق والشيم، له سمت حسن. وانتهت إليه الرياسة في تحقيق المذهب، ولم يزل يدرس ويفتي الناس حتى مرض مرض الموت، وكان مرضه بالفالج، فأقام به نحو سنة ثم مات.

أخذ العلم عن جماعة منهم شيخ الإسلام الشيخ عبد الحق السنباطي. ومنهم شيخ الإسلام الشيخ برهان الدين بن أبى شريف، ومنهم الشيخ نور الدين المحلى. رضى الله تعالى عنهم أجمعين. وكتب على مؤلفاتي أحسن كتابة، ﷺ.

الشيخ محمد الشامي

ومنهم الشيخ الصالح الزاهد المتمسك بالسنة، الشيخ محمد الشامي، نزيل تربة البرقوقية، ﷺ. كان عالمًا صالحًا متفننًا في العلوم، وألف السيرة النبوية المشهورة التي جمعها من ألف كتاب. وأقبل الناس على كتابتها، ومشى على أنموذج لم يسبق إليه.

وكان عزبًا لم يتزوج قط، وكان ﷺ إذا قدم عليه الضيف يعلق القدر ويطبخ له، وكان حلو المنطق، مهيب المنظر. كثير الصيام والقيام. بت عنده الليالى فما كنت أراه ينام في الليل إلا قليلاً.

وكان إذا مات أحد من طلبة العلم وخلف أولادًا قاصرين وله وظائف، يذهب إلى القاضي، ويتقرر فيها، ويباشرها، ويعطي معلومها للأيتام حتى يصلحوا للمباشرة.

وكان لا يقبل من مال الولاة وأعوانهم شيئًا، ولا يأكل من طعامهم، وذكر لى شخص من الذين يحضرون قراءة سيرته في جامع الغمري أن سأله في اختصار السيرة. وترك ألفاظ غريبها، وأن يحكي السيرة على وجهها كما فعل ابن سيد الناس، فرأيته في بين القصرين، وأخبرته الخبر، فقال: شرعت في اختصارها من مدة يومين، فرأيت ذلك هو الوقت الذي سألني فيه ذلك الرجل وكانت عمامته نحو سبعة أذرع على عرقية لم يزل غاضًا طرفه كما هو سواء كان ماشيًا أو جالسًا ، ﷺ. وأخلاقه الحسنة كثيرة مشهورة.

الشيخ عبد الرحمن الشامي

ومنهم الشيخ العالم الفقيه النحوي الصوفي الشيخ عبد الرحمن الشامي، المدرس بخانقاه سعيد السعداء. كان يتعمم بالصوف، وله كشف تام، وتحقيق في العلوم الشرعية، وأقبلت الأمراء والأكابر عليه، واعتقدوه اعتقادًا تامًا، ورأيت مرة أمير كبير قد باس يديه وهو ماد رجليه.

الشيخ فخر الدين السنباطي

ومنهم الشيخ الإمام العالم العلامة فخر الدين السنباطي الشافعي ﷺ.

كان عالمًا صالحًا ورعًا عابدًا زاهدًا، ولما ضربوا القانون على القضاة عزل نفسه من القضاء. وكان يقضي في بلاده قيامًا بفرض الكفاية، لا يأخذ على ذلك عوضًا. فقلت له: يتعين عليك ذلك، فرجع وطلب الولاية.

وكان يفصل بين الخصمين ويغديهما ويعشيهما، ويعلف دوابهما، وبت عنده ليالي فما رأيته ينام من الليل إلا قليلاً ويبقى طول الليل قائمًا يتهجد ويتلو القرآن ويبكي حتى يكاد يخر من البكاء، وكان قليل الكلام حسن السمت، أخذ العلم عن

جماعة منهم: الشيخ كمال الدين الطويل، والشيخ برهان الدين بن أبي شريف، والشيخ زكريا، وصحب شيخنا الشيخ محمد الشناوي، وانتفع به ﷺ.

الشيخ شمس الدين الترجمان

ومنهم الشيخ الإمام العالم العامل المرابط الشيخ شمس الدين الترجمان ﷺ، كان رفيقًا للشيخ فخر الدين السنباطي، والشيخ ناصر الدين الطبلاوي، أفتى ببلاده ودرس وانتفع به خلائق كثيرة. وكان آمرًا بالمعروف ناهيًا عن المنكر، حتى أزال المنكرات ببلاده كلها، وكان شيخًا شجاعًا راميًا لا يكاد سهمه يخطئ، وكان إذا جاء إلى مصر يزورني تفضلاً منه، صحبته نحو عشر سنين، إلى أن مات رحمه الله تعالى.

الشيخ شهاب الدين بن عبد الحق

ومنهم الإمام العلامة الورع الزاهد الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر الشيخ شهاب الدين بن الشيخ عبد الحق السنباطي، الواعظ بجامع الأزهر ﷺ.

لم يزل أحد من الوعاظ يقبل عليه الخلائق مثله. كان إذا نزل من فوق الكرسي يقتتل الناس عليه، ومن لا يصل إليه يرمي شده حتى يلمس ثيابه، ثم يأخذه فيمسح به وجهه.

وكان مفتيًا في العلوم الشرعية، وله الباع الطويل في الخلاف العالي، ومعرفة مذاهب المجتهدين. وكان من رءوس أهل السنة والجماعة، ومن نسبه إلى ضد ذلك فقد افترى إثمًا عظيمًا.

طالع كتابي العهود من أوله إلى آخره، وأعجب به، ونقل منه على الكرسي عدة عهود وأنا أسمع، ولما رماني بعض من لا يخشى الله تعالى ببعض بهتان انتصر لى من فوق الكرسي ثلاث مجالس حتى رجع ذلك المفتري عنى.

ولما مات ﷺ أظلمت مصر لموته، وانهدم ركن عظيم في الدين، وكان الشيخ قد اشتهر في أقطار الأرض كالشام والحجاز واليمن والروم وصاروا يضربون به المثل وأذعن له علماء مصر الخاص منهم والعام، وعمل الحسدة له مكائد عند نواب مصر، ونجاه الله تعالى منهم، وهدم كذا كذا كنيسة، وبيعة ﷺ. وما رايت في عمري أكثر خلقًا من جنازته إلا جنازة الشيخ شهاب الدين الرملي صلوا عليه يوم الجمعة، ﷺ.

الشيخ أبو الحسن البكري

ومنهم الشيخ الفقيه الصوفي المحدث، نادرة الزمان الشيخ أبو الحسن البكري ﷺ، أخذ العلوم عن جماعة من مشايخ الإسلام، والتصوف عن الشيخ رضي الدين الغزي، وتبحر في علوم الشريعة من تفسير وحديث، وغير ذلك.

وكان ﷺ إذا تكلم في علم منها كأنه بحر زاخر، لا يكاد السامع يتحصل من كلامه على شيء ينقله عنه لوسعه إلا أن كتبه في قرطاس. وأخبرني بلفظه ونحن بالمطاف أنه بلغ درجة الاجتهاد المطلق، وقال: أنا أكتم ذلك عن الأقران خوفًا من الفتنة، وسبب ذلك كما وقع للجلال السيوطي رحمه الله تعالى، هذا لفظه.

وكانت مدة اشتغاله على الأشياخ مدة سنتين، ثم جاءه الفتح من الله تعالى واشتغل بالتأليف، ولم يزل على ذلك إلى أن مات، وهو أول من حج في محفة ثم تبعه الناس. وقد عاشرته من حين كان بلا لحية، فما رأيت عليه شيئًا يشينه في دينه. بل تربى في نزاهة وطاعة وعزة نفس على أهل الدنيا، لم يزل قط في تحصيل معاشه لغيره، بل كانت الدنيا تأتيه وهي راغمة، وذلك كمال على كمال.

وحججت معه مرة فما رأيت أوسع أخلاقًا منه، ولا أكثر صدقة في السر والعلانية، فكان لا يعطى أحدًا شيئًا نهارًا إلا نادرًا، وأكثر صدقته ليلاً، وكان له الإقبال العظيم عند الخاص والعام في مصر والحجاز وشاع ذكره في أقطار الأرض كالشام والروم واليمن والتكرور والمغرب مع صغر سنه ﷺ.

وكانت له كرامات كثيرة وخوارق وكشوفات فما قاله أو وعده لا يخطئ وترجمه الناس بالقطبية العظمى، ويدل على ذلك ما أخبرني به الشيخ خليل الكشكاوي، قال: رأيت الشيخ أبا الحسن البكري ﷺ وقد تطور فصار كعبة مكان الكعبة، ولبس سترها كما يلبس الناس القميص.

وكان له النظم الشائع في علم التوحيد، وأطلعني مرة على تائية عملها نحو خمسة آلاف بيت أوائل دخوله في طريق القوم، ثم غسلها وقال: إن أهل زماننا لا يحتملون سماعها، لقلة صدقهم في طلب الطريق، وأوصافه الحسنة تضيق عنها الدفاتر.

مات رضي الله عنه سنة نيف وخمسين وتسعمائة، ودفن بجوار الإمام الشافعي رضي الله عنه، وكانت جنازته مشهورة، وكان يحبني كثيرًا، وأخبرني مرة بأنه يدعو لى في سجوده، ولما أشاع بعض الحسدة أنه يكرهني أرسل إلى ورقة بخطه يحلف فيها بالطلاق الثلاث من زوجته أنى عنده بمنزلة ولده سيدى محمد، وهي عندى بخطه إلى الآن رحمه الله تعالى . آمين.

الشيخ شهاب الدين الفتوحى

ومنهم شيخ الإسلام العالم الصالح ذو الأخلاق الحسنة والأوصاف النفيسة بقية السلف الصالح، الشيخ شهاب الدين الفتوحى الحنبلي، رضي الله عنه.

كان من العلماء العاملين، ولاه السلطان الغوري القضاء كرهًا عليه، بعد أن قال للسلطان مرات: أنا لا أصلح للقضاء، وتولية مثلى لا تخلص ذمتك عند الله تعالى.

أقبل على العبادة آخر عمره، وصار كأنه لم يشتغل بعلم قط، مع أنه انتهت إليه الرئاسة في تحقيق نقول مذهبه، وفي علم السند في الحديث، وفي علم الطب والمعقولات، رضي الله عنه.

وجاءه مرة شخص يريد أن يقرأ عليه شيئا من المنطق، فقال له: يا ولدي قد صار الفقه ثقيلاً على قلبي، فما بالك بعلم أفتى بعض العلماء بتحريم الاشتغال به فقال: يا مولانا، إن العبادة عبادة. فقال: صحيح. ولكن ما وجدنا فيه رقة قلب بخلاف الذكر والاستغفار، مع أن فضل العلم على غيره مشروط بحصول الإخلاص فيه، وما أظن.

وكان الشيخ رضي الله عنه في أول عمره يفكر على طريق الصوفية ويقول: هل لله تعالى طريق أخرى تقرب إليه غير العلم الذي بأيدينا، فلما جمعه الله على سيدي على الخواص اعترف لأهل الطريق بالفضل. وقال: هؤلاء القوم قطعوا مقامنا وتعدوا إلى ما وراءه، وتأسف على عدم اجتماعه بالقوم، رضي الله عنه.

ولما أرسلت إليه بكتاب الجواهر والدرر الذى التقطته من مجالس سيدى على الخواص كتب عليه أحسن كتابة، وقال لى بصريح لفظه: والله إننى طول عمري أطالع في كتب الشريعة، فلم يخطر ببالي سؤال معه ولا جواب.

وأخبرني أنه اشتكى الشيخ على مرة للمحتسب حين كان الشيخ زياتا وضربه المحتسب وجرسه، ثم صار يبكي ويقول: مثلي يشتكي أولياء الله تعالى؟ ولم يزل يزور قبر سيدي على الخواص إلى أن مات.

وقال لى مرة لما طالعت قول الشيخ على الخواص في كتابه الجواهر والدرر: كل علم استفاده صاحبه من كلام غيره فليس بعلمه هو. ومن أراد أن يعلم مرتبته في العلم الذي يبعث عليه يوم القيامة ليرد كل قول إلى قائله، وينظر بعد ذلك، فما بقى فهو علمه الذي يبعث عليه. انتهى.

ولم يزل ﷺ من حين جمعته على سيدى على الخواص يتردد إلىّ ويقول: لا يجازيك عني إلا الله تعالى، فإني كنت تائهًا عن طريق أولياء الله تعالى. وصار له كشف عظيم قبل موته، وكاشفني بما في سرى مرات، فعرفت حينئذ قول الإمام الشافعي ﷺ: إذا لم يكن العلماء العاملون أولياء الله فليس لله ولى.

مات سنة نيف وعشرين وتسعمائة، وهو آخر مشايخ الإسلام من أولاد العرب انقراضًا، فأسل الله أن يجمعنا عليه في الآخرة ليأخذ بيدنا في تلك الشدائد.

الشيخ سراج الدين العبادي

ومنهم الشيخ الإمام العالم العلامة سراج الدين العبادي المقيم بالبرقوقية التي بالصحراء ﷺ. صحبته أربعين سنة فرأيته على قدر عظيم في العبادة والزهد والورع والعلم، من الخشية وضبط اللسان وسائر الجوارح من المخالفات، حتى لا يكاد يتكلم إلا نادرًا لضرورة شرعية. وكان يقول مذهب الشافعي نصب عينيه. وشرح قواعد الزركشي شرحًا عظيمًا في مجلدين، وأتى فيه بتحقيقات ونكت وقواعد.

أخذ ﷺ العلم عن الشيخ سراج الدين العبادي الكبير، وعن الشيخ شمس الدين الجوجري، وعن شيخ الإسلام يحيى المناوي وغيرهم، وأجازوه بالإفتاء والتدريس. وكان صاحب توجه عظيم كامل إلى رسول الله ﷺ، وكان مجاب الدعوة فيمن يؤذى أحدًا من المسلمين.

ولما حج وزار قبر رسول الله ﷺ طلب من الخدام أن يفتحوا له باب مقصورته ﷺ فأبوا، فلما كان الليل توجه إلى النبي ﷺ وغالب الناس نيام، ففتحت الأقفال بنفسها ودخل وزار ثم خرج وعادت الأقفال إلى ما كانت عليه[١].

توفى رضي الله عنه سنة نيف وأربعين وتسعمائة.

الشيخ شهاب الدين الصائغ

ومنهم الشيخ الإمام العالم الصالح الشيخ شهاب الدين الصائغ الحنفي، رضي الله عنه. كان حسن الخلق والشيم، مهيب المنظر، قليل الكلام، كثير العبادة في الليل والنهار، حلو اللسان، كثير التواضع، قليل التردد للأكابر.

وكان عالما بالعلوم الشرعية والطبية، لجمع طب الأبدان وطب الأديان، ولم أر في عصره من جمع بينهما سوى الشيخ شهاب الدين الفتوحي رضي الله عنه.

أخذ العلوم عن الشيخ أمين الدين الأقصرائي، وعن الشيخ تقي الدين الشمني، وعن الكافيجي، وعن شيخ الإسلام الأمشاطي، وأجازوه بالفتوى والتدريس، وحضرت درسه في تفسير البيضاوي، فأبدى من نكته العجائب.

وكان يصبر على جفاء السائل، ويوجه السؤال، وكان يحب الخمول ويقول أحب شئ إلى أن ينساني الناس فلا يأتوني ولا آتيهم، لقلة نفع الاجتماع الآن، وما زاحم قط على شئ من وظائف العلماء، وعرضوا عليه عدة وظائف فلم يقبلها، رضي الله عنه إلى أن مات سنة نيف وثلاثين وتسعمائة.

الشيخ شمس الدين اللقاني

ومنهم الشيخ الإمام العالم العلامة المجمع على جلالته الشيخ شمس الدين اللقاني المالكي رضي الله عنه، كانت له مكاشفات عظيمة غريبة، وكان كريما سخيا حافظا لنقول المذهب كأنها كلها نصب عينيه.

---

(١) لا يوجد دليل على ذلك، ولم يسبق لأحد من الصحابة او الخلفاء الراشدين اوالتابعين أو العلماء المشهورين او الفقهاء اصحاب المذاهب ان ذكروا مثل هذه الأمور، او حدثوا بانها وقعت لأحد.

وكان يواجه الأكابر والأصاغر بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لا يخاف في الله لومة لائم، وكان لا يبيت على درهم ولا دينار.

وأخبرني من أثق به من طلبته أن شخصًا أعطاه سبعة عشر دينارًا، وهو في الدرس، فقال: الهدية لمن حضر، ففرقها على الطلبة، فأصاب كل واحد دينارًا، وفضل دينار، فأرسل إلى السوق فاشترى به موزًا وحلوى وجمعهم عليه فأكلوا وانبسطوا. وقال مباسطًا لهم: السلطان إذا لم ينفق على عسكره خرجوا عن طاعته، وعصوا أمره. ولو أن أهل العلم فعلوا كما فعلت لعكف عليهم الطلبة وحملوا عنهم العلم، ونفعوا الناس وأنفسهم وشيخهم. رضي الله عنه.

وكان رضي الله عنه حزين القلب، كثير البكاء والخشية لله تعالى، وكان رضي الله عنه إذا سمع أحدًا يذكر شيئًا من أحوال يوم القيامة يمكث الأيام لا ينتفع به أحد من أمر الدنيا.

وقرأ عليه مرة شخص شيئًا من تذكرة القرطبي وأحوال الموتى، فمرض خمسين يومًا، وكان رضي الله عنه كثيرًا ما يغلب عليه التعظيم لله عز وجل، فيذهل عن نفسه، وربما خرج من الجامع الأزهر. فلا يهتدي إلى بيته فيأخذ الأطفال بيده فيوصلوه إلى بيته.

ومناقبه كثيرة مشهورة بين طلبته وغيرهم صحبته نحو ثلاثين سنة وانتفعت بلحظه، فأسأل الله أن يحشرنا في زمرته آمين.

الشيخ ناصر الدين اللقاني

ومنهم الشيخ الإمام العلامة المجمع على جلالته الورع الزاهد الشيخ ناصر الدين اللقاني المالكي رضي الله عنه، وهو أخوه، انتهت إليه الرئاسة بعد أخيه الشيخ شمس الدين في العلم والعمل والتحقيق والوقوف عند قوله. جاءته الأسئلة من بلاد المغرب والتكرور واليمن والحجاز والشام والروم، وتخرج به جماعة مذهبه الموجودون الآن، فلا يوجد مالكي إلا وهو من طلبته أو طلبة طلبته.

وكان رضي الله عنه من أعظم الناس اعتقادًا في طائفة القوم، وما دخلت عليه قط وهو جالس على فروته إلا قام وأجلسني عليها وجلس على الأرض، وأظن أن تلامذة طلبته لا تفعل ذلك مع مثلي.

ولما دس بعض الحسدة على كتابي العهود وغيره مسائل خارجة عن ظاهر[1] الشريعة أجاب عني بتقدير صحتها بأحسن جواب.

ثم إني اجتمعت به وأخبرته أن تلك المسائل مدسوسة، وأطلعته على النسخة التي عليها خطه، ففرح بذلك أشد الفرح[2].

وكان رضي الله عنه يقول: ما نصحتكم لأمر دنيوي، وإنما نصحتكم لتأخذوا بيدنا في يوم القيامة.

ولما رد الشيخ محمد التونسي فتواه في حادثة، رأيت تلك الليلة الشيخ ياقوت العرشي وهو يقول للشيخ محمد التونسي: مالك ولشيخ المذهب ترد عليه بغير علم، وزجره أشد الزجر، فشهد له بأنه شيخ المذهب.

وزرته مرة فوقفت على الباب وأنا ساكت لم أدق عليه الباب أدبًا معه، فخرج وهو مذعور وقال: لقد سمعت قعقعة سقف القاعة وحيطانها، حتى خفت من أنها تنطبق عليّ، ثم صار يحكي ذلك لجماعته. ووالله إني لم أتوجه إلى الله تعالى فيما وقع. وإنما ذلك أمر من الله تعالى ابتداء.

مات رضي الله عنه سنة ثمان وخمسين وتسعمائة رحمة الله تعالى عليه.

الشيخ شهاب الدين الفيشي

ومنهم الشيخ الإمام العلامة مفتي المسلمين الشيخ شهاب الدين الفيشي المالكي رضي الله عنه

صحبته سنة بعد أن عرضت عليه محفوظاتي وأجازني ودعا لي بدعوات وجدت بركتهن. وكان مذهب الإمام مالك نصب عينيه، وأكثر أيامه صائمًا، وكان يتهجد كل ليلة بثلث القرآن، وأوصاني بوصيته فانتقشت في قلبي إلى الآن، فانتفعت بها.

---

(١) سبق أن أشار رحمه الله على واقعة الدس هذه في كثير من المواضع في بعض كتبه منها تنبيه المغترين، وميزان الكبرى وغيرهما، والكتابين المذكورين من تحقيقنا.

(٢) راجع تنبيه المغترين، تحقيق: أ. د. أحمد السايح والمستشار توفيق علي وهبه، نشر المكتبة الدينية الثقافية بباب الشعرية.

قال لي: يا ولدي، لا تعوّل على حفظ العلم من غير عمل، كما عليه الناس اليوم تخسر دينك. وكان مجلسه مجلس هيبة ووقار وأدب وعلم، وكان دائم الطهارة لا يحدث إلا ويتوضأ. هكذا قال لي أصحابه ﷺ.

الشيخ عبد الرحمن الأجهوري

ومنهم أخي المحب الصادق العالم العامل الزاهد، مفتي المسلمين الشيخ عبد الرحمن الأجهوري المالكي ﷺ.

أخذ العلوم عن الشيخ شمس الدين اللقاني، وعن أخيه الشيخ ناصر الدين اللقاني وغيرهما وأجازوه بالفتوى والتدريس، فدرس العلم وأفتى في حياة أشياخه.

وكان الشيخ ناصر الدين إذا جاءته الفتوى يرسلها له من شدة إتقانه وحفظه للنقول ﷺ. وما زار أحدًا من العلماء قدر ما زارني، كان ﷺ لا يكاد يتخلف عن زيارتي كل يوم أربعاء.

وكان الشيخ يوسف الحريتي يقول: أحب من الدنيا ثلاثة: الشيخ عبد الرحمن الأجهوري، والشيخ يوسف البشلاوي، وعبد الوهاب الشعراني.

وكان الشيخ عبد الرحمن كريم النفس قليل الكلام واللغو، حافظًا لجوارحه عن المخالفات، كثير التهجد في الليل، كثير التلاوة للقرآن، زاهدًا ورعًا كثير الأدب مع إخوانه.

تفقه عليه خلائق لا يحصون، وكتب على مختصر الشيخ خليل، وألف عدة كتب نافعة وصلت إلى بلاد المغرب وبلاد التكرور، صحبته أربعين سنة فما سمعته قط يذكر أحدًا بسوء من أقرانه، على ما أتاه الله تعالى من علم أو مال أو جاه أو إقبال من الناس، بل يقول: لولا أنه يستحق ما أعطاه الله تعالى ذلك.

ولما مرض دخلت عليه فوجدته لا يقدر أن يبلع الماء من غصة الموت، فدخل عليه شخص بسؤال فقال: أجلسوني، فأجلسناه وأسندناه فكتب، فلم يقف له ذهن مع شدة المرض ﷺ وقال: لعل ذلك آخر سؤال أكتب عليه، فمات تلك الليلة ﷺ.

حضرت معه أنا والشيخ أبو العباس الحريتى قراءة المواهب مع مؤلفها الشيخ شهاب الدين القسطلاني شارح البخاري، وجمع عليه الأربعة عشرة قراءة.

مات ﷺ سنة نيف وعشرين وتسعمائة ودفن تجاه مقام إخوة يوسف عليه الصلاة والسلام بجامع محمود بالقرافة، وقبره ظاهر، وكان كلما مر على قبر يقول: أنا أحب هذه البقعة ﷺ.

الشيخ شمس الدين العبادي

ومنهم الشيخ العلامة المحقق الورع الزاهد الشيخ شمس الدين العبادي الشافعي ﷺ.

صحبته عشر سنين، فما رأيت أكثر صمتًا منه. ثم مرض فأكل حامضًا فثقل لسانه. أفتى ودرس في الجامع الأزهر، وانتفع به خلائق، ولم يزل في ازدياد، إلى أن مات ﷺ آمين.

الشيخ شهاب الدين البلقيني

ومنهم الشيخ الصالح المجمع على حالته الشيخ شهاب الدين البلقيني ﷺ. كان ﷺ غريبًا في أقرانه، لكثرة زهده وورعه، وحسن خلقه، وحلاوة لسانه، وضبطه.

أخذ العلم عن عدة من العلماء الأعلام، ومن أجلهم العلامة الشيخ شهاب الدين الرملي الأنصاري ﷺ، ولازمه ملازمة شديدة حتى أجازه بالافتاء والتدريس، فدرس وأفتى في حياته. وانتفع به خلائق، حتى كانت حلقته أوسع من حلقة شيخه.

وأخذ طريق القوم عن سيدي علي المرصفي، ثم عن تلميذه الشيخ نور الدين الشوني، وشيخ مجلس الصلاة على النبي ﷺ في جامع الأزهر، وأحبه غاية المحبة. واستخلفه في مجلسه في حياته وبعد مماته، وقدمه على جميع أصحابه وقال: ما قدمته في المجلس إلا بعد مشاورة النبي ﷺ، واعتقد علمه وصلاحه، الخاص والعام، واشتهر في مصر وقراها، والشام، والحجاز، والروم.

وصحبته رحمه الله تعالى نحو أربعين سنة، فما رأيت عليه شيئا يشينه في دينه، وما ذكره أحد بسوء إلا ورآه تلك الليلة وعليه ثياب خضر وبيض نقية الخضرة والبياض، فأعرف بذلك كذب الحاسد وصدق الشيخ شهاب الدين وشدة إخلاصه.

وما رأيته قط التفت إلى وظائف الفقهاء، بل تربى على العفة والورع والزهد في الدنيا حتى أتته وهي راغمة.

ووقع لى مرة معارضة من أصحاب النوبة من العجم فما كنت إلا هلكت. فأتاني زائرًا هو والشيخ نور الدين الشوني، والشيخ أبو العباس الحريتي، والشيخ شهاب الدين الوفائى رضي الله عنهم وجماعة. فلما أرادوا الانصراف قال لهم الشيخ شهاب الدين البلقيني: كيف تذهبون وأنتم مشايخ مصر، والرجل بمرضه، ما حملتم عنه شيئا. فصار كل واحد يقول لصاحبه: أحمل أنت عنه، فيرد الأمر عليه، فقال الشيخ شهاب الدين البلقيني: مدّوني وأنا أحمل عنه. ثم وضع رأسه في طوقه مقدار درجة. فقمت فسبقتهم إلى خارج الدار، وكان لى تسعة أيام لا آكل ولا أشرب ولا أنام.

ورأيت مرة في المنام أن الشيخ نور الدين الشوني جالس في مجلسه بالجامع الأزهر. والمقصورة مفروشة بالحرير الأخضر، والعمد كلها مستورة بالحرير، ونظرت الشيخ نور الدين سحابة خضراء إلى السقف، فبينما هو كذلك إذ نزل إلى الأرض وابتلعته، فجاء الشيخ شهاب الدين البلقيني فجلس مكانه، ثم ابتلعته الأرض كذلك، ثم جاءوني فأجلسوني واستيقظت. فقصصت ذلك على الشيخين، فقالا: إن صدقت رؤياك فأنت تقبرنا وتعيش بعدنا. فكان الأمر كما قالا رضي الله عنهما.

وكان للشيخ شهاب الدين وقائع غريبة مع الجن، وكانوا يحدثونه ويوضئونه وكان إذا رأى أحدًا مركوبًا يقول للراكب: اخرج، فيخرج من غير عزيمة عليه، وكذلك بلغنا أنه كان يجتمع بالنبي ﷺ يقظة ويحادثه، أي يجتمع به في حالة بين النائم واليقظان، كما هو مقرر في تأويل كلام القوم[1].

مات ﷺ في ثاني صفر سنة ستين وتسعمائة، ودفن بالقرب من تربة الجامع الأزهر، رحمة الله تعالى عليه.

---

(١) اى بحس القلب، وما ذكره إمامنا الشعرانى رحمه الله تاويل طيب فجزاه الله خيرا ورضى عنه.

الشيخ زكريا بن الشيخ زكريا الأنصاري

ومنهم الشيخ زكريا ولد شيخنا شيخ الإسلام زكريا الأنصار رضي الله تعالى عنهما.

أخذ العلم عن أبيه المذكور، وعن الشيخ برهان الدين بن أبي شريف، وعن الشيخ عبد الحق السنباطي، وعن الشيخ كمال الدين الطويل.

وكان أبوه يحبه محبة عظيمة، وأخذ التصوف وطريق القوم، ولبس الخرقة عن أبيه المذكور، وعن سيدي على المرصفي، وعن غيره. وكان ذكيًا، حلو اللسان، جميل المعاشرة، كريم النفس، كثير التهجد في الليل، كثير الصدقة والافتقاد لفقراء الركب، وكان كثير البكاء عند سماع شئ من أهوال يوم القيامة.

مات ﷺ في شوال سنة تسع وخمسين وتسعمائة، ودفن خارج باب النصر. تجاه السيدة زبيدة رحمه الله تعالى.

الفصل الثالث

في مناقب جماعة من علماء العصر الأحياء

ولنذكرهم على ترتيب سبق أئمتهم بالزمان. فنبدأ بأصحاب الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان، ثم بأصحاب الإمام الشافعي محمد بن إدريس، ثم بأصحاب الإمام مالك بن أنس، ثم بأصحاب الإمام أحمد بن حنبل، رضي الله تعالى عنهم أجمعين، غير ملتزمين تقديم الأفضل من كل مذهب، لجهلنا بحقيقة مقامهم الذي يموتون عليه، فإن التحول والتبديل ربما وقع لأحدهم، فيقع وصفنا له على خلاف الواقع، فيكذبنا الحس.

وكذلك قلّ من يذكر مناقب أحد من الأحياء في حياته، وإنما يذكرونها بعد مماتهم، ولكن لما قوي رجائي في الله ﷻ، وأنه لا يسلب أحدًا منهم ما وهبه له من العلوم والمعرفة والأخلاق الحسنة أجرأني ذلك على ذكر مناقب من صحبته من الأحياء، ولم أذكر منهم إلا من أفتى ودرس في مذهبه بإذن أشياخه، لأن ذلك غاية ما يصل إليه طالب العلم.

وكذلك لا أذكر منهم إلا من علمت بقرائن الأحوال أنه لا يحب الشهرة واستحقر نفسه أن يذكره أحد في طبقات العلماء العاملين، لعلمي أن من أحب الشهرة، فهذا مرائي، وعيوبه مكشوفة للناس، فلا فائدة في الناس فيما أصفه به وقد كان الإمام مالك رضي الله عنه يقول: لو أحب العلماء أن يعرفوا لما عرفوا.

وقد كنت ذكرت بعض جماعة في هذه الطبقات، فقال لهم بعض الحسدة: إن فلانًا ذكر أقرانكم ولم يذكركم، فجاءوني فعتبوا عليّ لكوني لم أذكرهم بناء على صدق ذلك الحاسد، فرفعتهم من الكتاب، لعلمي أن من أحب الشهرة لابد أن ينطفئ اسمه، ولو على طول الزمن، فلا يفيده ذكرى له.

وقد أجمع القوم على أن علامة العالم العامل أن يرى نفسه أحقر عباد الله تعالى على الإطلاق كما كان عليه سيدى عبد العزيز الدريني، وسيدى عبد الله المنوفي، فكان أحدهما إذا جاء إلى وليمة ولم يقم إليه أحد ولم يفسح له يزداد سرورًا، وإذا قدموا

لأصحاب الصحون التي أكلها الناس يلحسونها ويزدادون سرورًا ويقولون: أكلنا فضلة هؤلاء الناس الملاح، وحصل لنا بركتهم.

وأنا أرجو من فضل الله أن يكون جميع من ذكرتهم على هذا القدم، وجل قصدي من ذكر صحبتهم من هؤلاء العلماء فتح باب الاعتقاد فيهم من أهل عصرهم، فيأخذوا عنهم العلم والأدب، وينتفعوا بعلمهم، فإنهم قالوا: الحاضرة حجاب.

فترى بعض الناس لا يقيم لأحد من أهل عصره وزنًا، ولا يعتمد على فتواه إلا إذا مات ذلك المفتي، وتخلف ذلك المعاصر بعده، فيصير بعده من العلماء، ويسمى ما يراه في مؤلفه منقولاً، ويحتج به.

وعن قريب تخلو الديار المصرية من هؤلاء العلماء، ويفقد الناس أنوار علومهم. فالعاقل من تأدب مع علماء زمانه وأقرانه، وأخذ منهم ما معهم من العلم والسلام.إذا علمت ذلك فأقول وبالله التوفيق.

الشيخ شمس الدين البرهمتوشي

فمن صحبته من علماء الحنفية الشيخ الإمام العلامة المقبل على عبادة ربه ليلاً ونهارًا، المعتزل عن الناس في بيته عملاً بالسنة المحمدية، الشيخ شمس الدين البرهمتوشي، فسح الله في أجله للمسلمين. لى في صحبته الآن مدة عشرسنين، فما أظن كاتب الشمال كتب عليه شيئًا. وإن وقع له أن عرض لأحد على وجه التنفير، فذلك من باب النصح للأمة، لا لحظ نفسه. وقد كان الإمام البخاري ﷺ يجرح الرواة كثيرًا ويقول: أرجو من الله ﷻ ألا يطالبني في يوم القيامة بغيبة في أحد. وذلك لأنه يريد بالتجريح نصرة الدين لا التشفي بذلك للنفس.

وبالجملة فالشيخ شمس الدين هذا فريد عصره، ونادرة زمانه في العلم والعمل والإخلاص، وعدم الوقوع فيما يذل نفسه لأبناء الدنيا، حتى أن بعض الولاة ولاه وظيفة تدريس جليلة عند الناس، فتوقف على أن يذهب إلى الأمير ويشكر فضله، فلم يفعل وتركها.

ومما وقع لى أنه كشف لى ذات ليلة فرأيت أعمال علماء الجامع الأزهر وهي صاعدة، فما رأيت أعمالهم أضوأ ولا أنور من عمله. فعلمت بذلك علو مقامه في الإخلاص وكيف لا يكون عمل من اعتزل عن الناس أضوأ وأنور وذاته المعتزلة قد تنظفت عن سائر الأدناس والأنجاس تبعًا للقلب، فإنه إذا استنارت أضاءت الذات وأضاءت الأعمال.

وقد مررت مرة على قناطر السباع التي عملت من الحجارة، فنظرت إلى سبع منها قريب من الناس عليه النخامات والبصاق حتى اسود وقبحت رائحته. فقال شيخ قد طعن في السن: انظر يا ولدي واعتبر وتأمل في ذلك السبع لما قرب من الناس كيف تغيرت أحواله، وتأمل في ذلك السبع الذي فوق الحائط الذى لا يصل إليه أحد كيف هو أبيض يلمع في الشمس مثل الشيخ شمس الدين لما بعد عن الناس.

فأخذت لنفسي عبرة من ذلك، فمثل الشيخ شمس الدين هذا، وله المثل الأعلى من السبع، مثال ذلك السبع لذى لا يصل إليه أحد، نسأل الله تعالى أن يزيده من فضله. آمين

أخذ العلم عن جماعة، منهم شيخ الإسلام الشيخ نور الدين الطرابلسي، والشيخ العلامة المحقق العالم العامل المجمع على جلالته الشيخ محمد نعوش المغربي المالكي حين قدم إلى مصر من الروم. وقرأ عليه أجلاء علماء مصر، وانتفعوا به، ولم يزل ﷺ يقرأ على العلماء والأشياخ حتى تبحر في علوم الشريعة من تفسير وحديث وفقه وأصول ومعان وبيان وغير ذلك. وأجازه أشياخه بالإفتاء والتدريس. فدرس العلم وأفتى مرة. ثم امتنع عن الفتيا تورعًا منه ﷺ.

وانتفع به خلائق لا يحصون من أهل مصر والحجاز والعجم والروم. وأقبل عليه الطلبة إقبالاً عظيماً، وقدموه على أقرانه لما هو عليه من العلم والعمل والزهد والورع وقلة التردد إلى الأكابر مثل غيره، وعدم مزاحمته على شئ من وظائف الفقهاء اقتداء في ذلك بالسلف الصالح ﷺ. فأسأل الله تعالى أن ينفعنا بعلومه، ويرزقنا الأدب معه إلى الممات، وأن يحشرنا في زمرته في الآخرة تحت لوائه. آمين آمين آمين.

مات رضي الله عنهم في ثالث جمادى الأولى سنة اثنتين وسبعين وتسعمائة. ودفن بمقبرة المجاورين. بجوار تربة السلطان قايتباي رحمه الله تعالى آمين.

الشيخ سراج الدين الحانوتي

ومنهم الشيخ المجمع على جلالته وعلمه وورعه وحفظ جوارحه الشيخ سراج الدين الحانوتي ﷺ. ما رأيت في أقرانه أكثر اعتقادا منه في طائفة الفقراء، لا يكاد يغفل عن زيارتهم أحياء وأمواتا، وقد استحييت من كثرة زيارته لى ماشيا تبعا لشيخه الشيخ شهاب الدين بن الحلبي رحمه الله تعالى.

صحبته نحو عشر سنين إلى وقتنا هذا، فما اظن أن كاتب الشمال وجد شيئا يكتبه عليه من شدة تقواه وضبطه لجوارحه، وما سمعته يذكر أحدا من المسلمين وغيرهم بغيبة، حتى أنه دخل عليه طبيبان من اليهود في مرضه لقلت إن أحدهما أعرف بالطب من الآخر.

وما رأيته قط يزاحم على شئ من الدنيا، ولا يتردد إلى أحد من الولاة إلا لضرورة شرعية، من شفاعة في مظلوم ونحو ذلك.

وكان مجلسه مجلس علم وأدب وخشية وخوف من الله ﷻ، فقد طبعه الله على الأخلاق المحمدية. والشيم المرضية، والأحوال السنية، لا يكاد يطلع عليها إلا الله ﷻ، من تهجد وقراءة أوراد ومراقبة.

لم يزل من حين صحبته على قدم التواضع وهضم النفس. وجلس عندي مرة بحضرة شخص من الأولياء فقال لى: نظرة هذا الرجل نظرة أرباب الأحوال فعرفت مقامه من نفس نظرته دون شئ من أعماله الزكية لكثرة إخفائها عن الناس، ولو أني أعرف منه محبة عدم الشهرة لأوسعت الكلام ببعض محاسنه فأسأل الله تعالى أن يزيده من فضله، وأن ينفعنا ببركاته، ويجعل في ذريته وطلبته العلم والبركة آمين. ويحشرنا في زمرته آمين.

الشيخ بشر

ومنهم العلامة الصالح العالم العامل الشيخ بشر ﷺ. أخذ العلم عن جماعة منهم الشيخ نور الدين الطرابلسي، وشيخ الإسلام الشيخ عبد البر بن الشحنة، وغيرهم من العلماء، وأجازوه بالفتوى والتدريس، وأفتى في جامع الأزهر وغيره، وانتفع به خلائق، وقد غلب عليه الآن محبة الخفاء والخمول والجلوس وحده، وترك التردد للناس حتى

صار كأنه لم يعرف أحدًا. فقيل له في ذلك. فقال: قد ضاع عمري من الاشتغال بأمور الناس ومخالطتهم.

وصحبته نحو خمس سنين فما رأيت عليه شيئًا يشينه في دينه، وما رأيته قط يغتاب أحدًا من أقرانه ولا غيرهم. وهو من أجل أصحاب الشيخ نور الدين الطرابلسي. وجلس مدة يقضي بين الناس نيابة عن شيخ الإسلام، ثم ترك القضاء، وأقبل على العبادة من صوم وقيام ليل ومراقبة وصمت. وما أتاني قط إلا وجدته صائمًا. وأخبرني من يخالطه أنه يفطر على كسرة يابسة في أكثر أيامه ويكتفي بها ﷺ. آمين.

الشيخ بدر الدين الشهاوي

ومنهم الشيخ الأخ الصالح العالم العلامة الورع الزاهد الشيخ بدر الدين الشهاوي ﷺ. صحبته نحو ثلاثين سنة فما زاغ عن الشريعة في شئ من أفعاله وأقواله وعقائده. أخذ العلم عن جماعة من مشايخ الإسلام، كالشيخ نور الدين الطرابلسي شيخ الإسلام، والشيخ شهاب الدين الحلبي. فلم يزل يقرأ عليه حتى تبحر في علوم الشريعة والإفتاء، فأحبه حبًا شديدًا وزوجه ابنته، وأجازه في الإفتاء والتدريس، فدرس وأفتي في حياة أشياخه بإذنهم.

وأخذ طريق التصوف عن سيدى أبي السعود الجارحي ﷺ فكمل بذلك حاله. لأن الفقيه إذا لم يكن له علم بطريق القوم فهو ناقص في المقام، إذ بمعرفة طريق القوم يعرف العبد دقائق الرياء والنفاق في أحواله فيستغفر منها ويتوب، ومن لا يعرف طريق القوم ربما يموت على عدة من الكبائر الباطنة من حسد وغل وحقد وعجب وكبر ورياء ونفاق ومحبة للدنيا. ولا يهتدي للتوبة، فاعلم ذلك.

ومن صفاته ﷺ كثرة ذكر الله ﷻ بلسانه وقلبه. ما جالسته قط ورأيته غافلاً وشهود أنه يراه، وهذه أكبر حالة تحصل للفقراء بعد طول مجاهدتهم.

ومن صفاته النصح لإخوانه، وعدم المداهنة لهم، مع ما هو عليه من كثرة الصيام، وقيام الليل، والصدقات الخفية، وله القدم العظيم في كتم أحواله وأفعاله عند الناس حتى عن عياله. وله صبر عظيم عن العزلة والجلوس في بيته فلا يخرج إلا لضرورة شرعية من صلاة جماعة وتدريس ونحو ذلك.

وأوصافه الحسنة تجل عن تصنيفي. فأسأل الله تعالى أن يزيده من فضله، وأن يحشرنا في زمرته. آمين. آمين. آمين.

الشيخ أمين الدين بن عبد العال

ومنهم الشيخ الإمام العالم العلامة الورع الزاهد في الدنيا والآخرة الشيخ أمين الدين بن عبد العال رضي الله عنه. صحبته نحو أربعين سنة فما رأيته زاغ عن السنة المحمدية، ولا اعتنى بشيء من الملابس، ولا توقف في ركوب الحمار على بساط، وأكثر خروجه للسوق بلا رداء، بل ثيابه في بيته هي التي يخرج بها إلى درسه، طارحًا للتكلف جملة في جميع أحواله، لا يكاد أحد يميزه من العامة.

ودخلت عليه مرة وهو جالس في الدرس أيام الشتاء في حوش السلطان جانبلاط فسطع لى منه أنس عظيم حتى امتلأت جوارحي منه أنسًا، ورأيت باطنه ممسوحًا من الأعراض النفسانية كباطن الطفل، وما وقع لى ذلك قط مع أحد من أقرانه.

وكان والده الشيخ عبد العال رجلاً صالحًا كريمًا عفيفًا لا يمكن أحدًا أن يفارقه حتى يقدم له شيئًا يأكله، ودخلت عليه مرة فلم يجد عنده طعامًا فقدم لى الماء وقال: اشرب ولو يسيرا. وربما وجد اللقمة اليابسة فيعضها بين يدي الأمير ونحوه. رضي الله عنه وعن ولده الشيخ أمين على تقوى وعلم وأدب.

أخذ العلم عن جماعة، منهم الشيخ نور الدين الطرابلسي، وأجازه أشياخه بالإفتاء والتدريس في حياتهم بإذنهم له ذلك، ووقف الناس عند قوله، وأجمعوا على كثرة ورعه وزهده وحفظ جوارحه من المخالفات، وكان أكثر أوقاته جالسًا وحده لمحبته للعزلة اقتداء بالسلف الصالح.

وما جالسته قط إلا ورأيته مشغولاً بالله عز وجل وبأهوال يوم القيامة، وله القدم الراسخة في كلام القوم. لا سيما كلام الشيخ محيي الدين بن عربي رضي الله عنه، وكانت أكثر أعماله قلبية، وسمعته يقول: كل عمل ظهر من أمثالنا دخله الدخيل.

وعرضوا عليه مرة عدة وظائف من تدريس وغيره فأبى. وبالجملة فأوصافه الحسنة كثيرة، فأسأل الله ﷻ أن يزيده من فضله، وأن ينفعنا ببركاته آمين، اللهم آمين.

مات يوم الأحد المبارك ثاني عشر من رجب سنة إحدى وسبعين وتسعمائة. ودفن في باب النصر، تجاه المدرسة الجانبلاطية.

الشيخ شرف الدين البلقيني

ومنهم الشيخ الإمام المجمع على جلالته وعلمه وصلاحه وزهده وورعه الشيخ شرف الدين البلقيني شيخ تربة "خاير بك" ملك الأمراء، ﷺ.

صحبته نحو أربعين سنة فما رأيته حاد عن طريق الشريعة، ورؤية وجهه تشهد لى بذلك، لما عليه من الأنس والهيبة والخشوع. أخذ العلم عن جماعة، منهم شيخ الإسلام نور الدين الطرابلسي، والشيخ برهان الدين بن أبي شريف وغيرهما، وأجازوه بالإفتاء والتدريس، وانتفع به خلائق.

وأخذ طريق القوم عن جماعة، منهم: سيدي محمد المغربي الشاذلي. وله أحوال عظيمة وتهجد طويل. بالليل. ويحب إخفاء الأعمال، فلا يكاد يطلع على عمله أحد وما رأيته قط إلا وحصل لى في باطني انشراح صدر، وانفساح، وزيادة حياء، وهذه من أكبر علامات الصالحين.

وما رأيت في أقرانه أكثر سعة منه، ولا أكثر تواضعًا ولا هضمًا للنفس وما تغير على أحد فأفلح بعد على يد غيره، وذلك لما هو عليه من الضبط والمناقشة لطلبته، ومن فر من مناقشة شيخه له فهو لا شك يقر من كل شيء ناقشه بعد ذلك. ولولا أنى أعلم منه محبته للخمول وعدم الشهرة لذكرت من محاسنه ما تقر به العيون.

فأسأل الله تعالى من فضله أن يزيده علمًا وعملاً وجمعية قلب على الله تعالى حتى يلقاه. آمين.

مات رحمه الله تعالى ..[1]

---

(١) سقط فى الأصل.

الشيخ زين العابدين بن نجيم

ومنهم الأخ الصالح والعلامة المحقق العابد الزاهد الشيخ زين العابدين بن يحي. رضي الله عنه.

صحبته نحو عشر سنين إلى الآن. فما رأيت عليه شيئا يشينه في دينه، وحججت معه في سنة ثلاث وخمسين وتسعمائة فرأيته على قدر عظيم مع جيرانه وغلمانه في ذهابنا وإيابنا، مع أن السفر يسفر عن أخلاق الرجال، وتخرج فيه الأخلاق عن الحد.

أخذ العلم عن جماعة منهم الشيخ شرف الدين البلقيني، والشيخ شهاب الدين بن الحلبي، والشيخ أمين الدين بن عبد العال، وأبى الفيض السلمي وغيرهم. وأجازه أشياخه بالإفتاء والتدريس فأفتى ودرس في حياة أشياخه بإذنهم، وانتفع به خلائق لا يحصون، وله عدة مؤلفات حرر فيها نقول مذهبه لا يستغنى عنها مفت ولا مدرس.

وأجمع الفقهاء على أدبه وجلالته، وما تخلف عن الإذعان له إلا كل من عنده حسد أو جهل بمقامه.

وما رأيت في أقرانه أكثر فوائد ولا أحسن منه، وله الاعتقاد العظيم في طائفة القوم. وقد شاورني في ترك الإفتاء والتدريس من الإقبال على طريق القوم. فقلت له: لا تدخل في طريق القوم إلا بعد تضلعك في علوم الشريعة، وحتى تصير تقطع جميع علماء مصر بالحجج القاهرة في مجلس المناظرة، فأجابني إلى ذلك، وقد بلغ بحمد الله ذلك.

وأخذ الطريق عن الشيخ العارف بالله تعالى الشيخ سليمان الخضيري، وصار له ذوق عظيم في الطريق يحل به مشكلات القوم ويوجهها على أحسن حال، فأسأل الله تعالى أن يزيده من فضله علمًا وعملاً وصلاحًا ويحشرنا في زمرته آمين.

الشيخ شمس الدين القلقشندي

ومنهم الأخ الصالح العالم الورع الزاهد الشيخ شمس الدين القلقشندي، المسيرى الأصل، المقيم بالمدرسة الأشرفية بخط الوراقين رضي الله عنه.

صحبته نحو عشر سنين فما رأيت عليه شيئا يشينه في دينه، بل نشأ على علم وخير وأدب وعمل، وحججت معه في سنة ثلاث وخمسين وتسعمائة، فما رأيت في أقرانه أكثر مروءة ولا عبادة منه، هو والشيخ شمس الدين الشربيني الخطيب، إني رأيتهما يمشيان عن جمالهما غالب المراحل وهما مشغولان بتلاوة القرآن وإفادة الناس وتعليمهم المناسك، ورأيته كثيرًا يعطى نعله للفقراء الحفاة ويمشي هو حافيًا، وكذلك رأيته يطوي عن الطعام والشراب في غالب أيامه ويعطي عشاءه وغذاءه إلى الفقراء، وظهر لى منه في تلك السنة علو همته، وكثرة إخفائه أعماله التي لا يقدر أحد على المداومة عليها قط.

أخذ العلم عن جماعة منهم الشيخ نور الدين الطرابلسي، والشيخ شهاب الدين ابن الحلبي، وأجازه مشايخه بالإفتاء والتدريس، فأفتى ودرس في حياة أشياخه، وانتفع به خلائق، ولا أعلم أحدًا يحفظ نقول المذهب مثله، وأقبل على العلم والعمل والعبادة. وتولى القضاء مدة ثم عزل نفسه، ومات ﷺ.

الشيخ صدر الدين

ومنهم الشيخ الإمام العالم العلامة المفتي الأخ الصالح الورع الزاهد صدر الدين الإمام بجامع القلعة ﷺ صحبته عدة سنين فما رأيت عليه شيئا يشينه في دينه، ولم يزل مقبلاً على عبادة ربه والعلم والعمل والعبادة، وله تهجد عظيم في الليل، وحفظ للجوارح، ومجلسه مجلس علم وأدب وحياء، وما رأيت في أقرانه أحسن خلقًا منه. ولا أكرم نفسًا. فأسأل الله تعالى أن يزيده من فضله علمًا وعملاً وزهدًا وورعًا ويحشرنا في زمرته آمين آمين آمين.

الشيخ محب الدين البكري

ومنهم الشيخ الإمام العلامة الصالح الشيخ الذي لا يخاف في الله لومة لائم الشيخ محب الدين البكري ﷺ.

هو من بيت علم وصلاح، وتولى ولده الشيخ رضي الدين قاضي ديوان الشريف. صحبته نحو أربعين سنة فما رأيته حاد عن طريق الحق، ولا هاب أحدًا من الولاة والأكابر، بل يصدعهم بالحق، وهذا الأمر قد انفرد به في مصر الآن ولم يشاركه فيه

أحد مع ما هو عليه من الورع والزهد وعدم قبول الهدية ممن لا يتورع في كسبه. وما ثارت في مصر فتنة إلا وكان خمودها على يديه، ولم يزل يصلح بين العلماء والأكابر إذا وقع بينهم تنافر وتدابر، وكلامه مقبول عند سائر الناس، وذلك دليل على صدقه وإخلاصه.

ولما وقعت الفتنة نفي مسألة استبدال الأوقاف أيام قاضي العسكر محمد إلياس وعارضهم الشيخ نور الدين الطرابلسي، كاتبوا فيه السلطان، فأرسل مرسومًا بشنق الشيخ نور الدين. ورأيت وأنا بين النائم واليقظان لوحًا نزل من السماء معلقًا بسلسة من فضة تجاه الشيخ محب الدين، مكتوبًا بخط أخضر، يقرؤه جميع من يمر عليه، فأرسلت وأعلمت الشيخ بذلك، فلما جاء المرسوم كانت نجاته على الشيخ محب الدين.

وبالجملة فما رأيت في عصر الشيخ محب الدين أكثر اهتمامًا بأمور المسلمين ولا أكثر خوفًا من الله ﷻ، ولا أنصر للحق منه، يكلم أعظم الأمراء كما يكلم آحاد الناس

بلغنا أنه صحب الشيخ الكامل سيدى محمد المغربي الشاذلي شيخ جلال الدين السيوطي في التصوف قال له: يا محب الدين تكلم وأمر بالمعروف وانه عن المنكر. ولا تخف من أحد. فلذلك لم يكن في مصر أحد من العلماء يواجه الباشات والأمراء والدفاتر بالكلام الجافي المر إلا هو. وكذلك لما صحب الشيخ على المرصفي والشيخ تاج الدين الذاكر والشيخ أبا السعود الجارحي وغيرهم. وكانوا كلهم يجلونه ويعظمونه ويصفونه بالصلاح والعلم والورع والدين.

وله تهجد بالليل وأوراد عظيمة وصيام كثير، وعلى وجهه الخفر والوقار. وأوصافه الحسنة تجل عن تصنيفي، فأسأل الله أن يزيده من فضله، وأن يحشرنا في زمرته. آمين.آمين.آمين.

قلت: وبقى جماعة كثيرة من الحنفية ذكرناهم في كتاب المفاخر والمآثر في بيان علماء القرن العاشر. كالشيخ عمر بن الجيد، وسيدي سرى الدين بن الصائغ، وسيدى يحيى الرهاوي. وسيدي محمد بن الحلبي، وسيدي يحيى الوفائي فمن أراد الاطلاع على حالهم فلينظر الكتاب المذكور. والله تعالى أعلم.

وأما أصحابنا من علماء الإمام مالك ﷺ.

فمنهم الشيخ الإمام العالم العامل الزاهد الورع المجمع على جلالته .

الشيخ عبد الرحمن الناجودي

المقرئ المقيم بالمدرسة العينية، ﷺ صحبته صحبة قلبية نحو عشر سنين إلى الآن فما رأيته زاغ عن الطريق الشرعية في شيء من أحواله وهذا أعظم كرامة تكون للأولياء.

أخذ ﷺ العلوم الشرعية عن الشيخ شمس الدين اللقاني، وعن أخيه الشيخ ناصر الدين اللقاني وغيرهما. وأجازوه بالفتوى والتدريس، فدرس ولم يفت تورعًا، وله حال عظيم مع الله تعالى في سره وصيامه وقيامه، يتعاطى حوائجه بنفسه من السوق ويحملها ولا يمكن أحدًا يحملها معه على طريق السلف الصالح.

وله ضبط عظيم لجوارحه حتى لا يكاد صاحب الشمال يجد شيئًا يكتبه عليه، وله شعرة تضرب إلى شحمة أذنه اتباعًا للسنة المحمدية.

قلت : ورأيت رسول الله ﷺ فأمرني بمطالعة كلام الإمام مالك لأجله، وذلك لأن شخصًا ورد عليه زائرًا فقال: اقرأوا لنا الفاتحة لما أراد الانصراف. فقال الشيخ عبد الرحمن: هذا لم يرد فيه شيء عن النبي ﷺ فلما أعلمني بذلك قلت له : الأمر سهل في ذلك، لو أنه قرأ لك الفاتحة لم يؤاخذه الله تعالى على ذلك. فرأيت رسول الله ﷺ وقال لي: عليك بالاطلاع على أقوال إمام دار هجرتي، والوقوف عندها، فإنه شهد آثاري.

فعلمت أن توقف الشيخ عبد الرحمن عن القراءة لعدم ورود شيء فيها أفضل من الابتداع ولو استحسنه العلماء، وعلمت أن الإمام مالك ﷺ . من أشد الناس اتباعًا للسنة المحمدية، فلذلك طالعت المدونة الكبرى والموطأ، وحررت منهما المسائل التي اختص بها الإمام مالك عن الأئمة. لأقف عندها عملاً بإشارة رسول الله ﷺ، وكانت هذه الرؤية كرامة للشيخ عبد الرحمن لأن رسول الله ﷺ نصره عليّ، فأسأل الله تعالى أن يزيده من فضله، وأن ينفعنا ببركاته في الدنيا والآخرة . آمين . آمين . آمين.

الشيخ عبد القادر المرشدي

ومنهم الشيخ الصالح الورع الزاهد الشيخ عبد القادر المرشدي ﷺ صحبته سنين عدة فما رأيت عليه شيئا في دينه، ورأيته ﷺ على قدم عظيم في الزهد والورع وهضم النفس حتى كأنه تراب، مع ما هو عليه من حسن الخلق والكرم، وحفظ الجوارح. وحلاوة المنطق.

أخذ العلوم الشرعية وتوابعها عن عدة من المشايخ منهم الشيخ العلامة المجمع على جلالته وورعه وزهده وعلمه الشيخ ناصر الدين اللقاني، فاشتغل عليه حتى تبحر في العلوم، وأجازه بالإفتاء والتدريس؛ فدرس وأفتى في حياة مشايخه.

وكان الشيخ ناصر الدين اللقاني يرسل له الأسئلة فيجيب عنها بأحسن جواب. وهو على قدر عظيم في احتمال الأذى ممن آذاه، ولا يقابل أحدًا من أعدائه بسوء، بل يصير ويدعو الله بالمغفرة، وما رأيته قط زاحم على شيء من وظائف العلماء، ولا تردد لأحد من أبناء الدنيا، وإذا جالسه أحد لا يكاد يفارقه من حسن خلقه وهضم نفسه. وجليسه في راحة منه. لا يكاد جليسه يسمع كلمة واحدة منه في حق أحد من المسلمين، وقل مجلس يسلم الآن من ذلك.

وله قيام عظيم في الليل، وصيام كثير بالنهار، لم يزل مكبًا على الاشتغال بالعلم والعمل وتعليمه منذ دخل الجامع الأزهر، ولم يلتفت إلى شيء من شهوات الدنيا من مأكل أو ملبس أو منكح أو مسكن، قد رضي من الدنيا بأقل القليل، يحب الخمول ويكره الشهرة، يقنع بالكسرة اليابسة، ويشكر الله عليها، ولا يرى نفسه يستحقها. لم يزل بمعزل عما أقرانه فيه من شدة الحسد بعضهم لبعض، ولذلك رفعه الله تعالى من أقرانه، وجعل الناس يقفون عند قوله. وأوصافه الجميلة الحسنة تجل عن تصنيفي. فأسال الله أن يزيده من فضله . آمين.

الشيخ زين العابدين الجيزي

ومنهم الشيخ الصالح العام الزاهد المجمع على جلالته وعلمه ودينه وضبط جوارحه. وخوفه من الله تعالى وخشيته له، الشيخ زين العابدين الجيزي صحبته نحو عشر سنين إلى الآن، فما رأيت عليه شيئا يشينه في دينه، بل نشأ في علم وأدب وعبادة وخير.

أخذ العلم عن جماعة منهم الشيخ العلامة المحقق ناصر الدين اللقاني، فاشتغل عليه حتى تبحر في علوم الشريعة، وأجازه بالإفتاء والتدريس، وكان يرسل إليه بالأسئلة المشكلة فيجيب عنها في حياة شيخه، فيفرح شيخه بها.

وما سمعته قط يذكر أحدًا من أقرانه الذين يحسدونه بسوء، بل يجلهم ويكرمهم في غيبتهم وحضورهم، ولا يؤاخذ أحدًا منهم على ما وقع منه في حقه، بل هو كثير الاحتمال للأذى بطيبة نفس، وما رأيته قط زاحم على شيء فيه رئاسة، ولا تردد إلى أحد من الأكابر.

وعرضوا عليه عدة وظائف فأبى أن يقبلها وقنع من الدنيا بالكسرة اليابسة والثياب الدون، مع كثرة تواضعه وحسن خلقه وبشاشته وحلاوة منطقه، يقول جليسه: ما رأيت خلقًا أحسن منه ولا أكثر تواضعًا، وكأن الله قد محق نفسه من خلق رديء، وأبدله خلقًا حسنًا. ولولا إني أعرف منه محبة الخمول وكراهة الشهرة لأبديت لأهل عصره من أخلاقه ما يبهر العقول، ولكنها سوف تظهر لهم في الآخرة. فأسال الله تعالى أن يفسح في أجله للمسلمين، وأن ينفعنا ببركاته وبركات علومه في الدنيا والآخرة.

الشيخ فتح الدين الدميري

ومنهم الشيخ الإمام العالم العلامة الأخ الصالح الورع الزاهد الشيخ فتح الدين الدميري ﷺ. صحبته نحو خمس سنين فما رأيته زاغ عن الشريعة في شيء من أحواله. بل هو خائف من الله ﷻ، كثير الحياء منه، كثير المراقبة له، ما اجتمعت به قط إلا حصل لى منه مدد بمجرد رؤية وجهه المكرم.

تولى القضاء مرة. ثم عزل نفسه بحيلة، ثم طلبوه أن يتولى فأبى وأقبل على العلم والعمل والتأهب للدار الآخرة. وله قيام عظيم في الليل، وبكاء وتضرع وابتهال ومراقبة لله تعالى.

أخذ العلوم الشرعية وتوابعها من جماعات، وأجازوه بالإفتاء والتدريس في جامع الأزهر وغيره، كشيخ الإسلام شمس الدين اللقاني، وأخيه الكامل المحقق الشيخ ناصر الدين، والشيخ نور الدين البحيري، والشيخ شمس الدين النقاى شارح المختصر، وشيخ

الإسلام يحيى الدميري، والشيخ أبى الفضل المحلى وأطلعني على خطوطهم جميعًا بإجازته رضي الله تعالى عنهم.

وصحب جماعة من الصوفية وأخذ منهم الطريق، كالشيخ محمد الشناوي شيخنا، والشيخ عبد الحليم بن مصلح، والشيخ أبى السعود الجارحي رضى الله تعالى عنهم، وأقبلوا عليه إقبالاً عظيمًا، وأحبوه، وحصل له منهم مدد كبير فأسأل الله تعالى أن يزيده من فضله، وأن يحشرنا في زمرته مع العلماء العاملين.

وكان أخي العالم الصالح الشيخ عبد الرحمن الأجهوري يحبه ويبالغ في محبته ويصفه بالزهد والورع والخوف من الله تعالى.

أخذ العلم عن جماعة من العلماء كالشيخ ناصر الدين اللقاني، والشيخ عبد الرحمن الأجهوري، والشيخ فتح الدميري، والشيخ نور الدين الديبلي، وجماعة، فأحبوه وأثنوا عليه، وأجازوه بالإفتاء والتدريس، ولم يزل مكبًا على الاشتغال بالعلم والعمل، غير ملتفت إلى شيء من أمور الدنيا، طارحًا للتكلف، محبًا للخجول، كارهًا للشهرة، يلبس ما وجد، ويأكل ما وجد، لا يكاد يعرفه أحد من العلماء.

وسمعته يقول مرات : والله ما أرى جميع ما تقلدته من العلم إلا حجة عليَ يوم القيامة بعد العمل به والإخلاص فيه. وما سمعته قط يذكر أحدًا بغيبة لا عدوًا ولا صديقًا، فأسأل الله تعالى أن يزيده من فضله. آمين اللهم آمين.

الشيخ نور الدين الطحلاوي

ومنهم الشيخ الصالح الزاهد نور الدين الطحلاوي. صحبته عدة سنين إلى الآن، فما رأيت عليه شيئًا يشينه في دينه، ونشأ في علم وأدب ونسك وعبادة. وأخذ العلم عن جماعة منهم الشيخ ناصر الدين اللقاني، والشيخ تقي الدين الدميري وأجازوه بالإفتاء والتدريس، فأفتى ودرس، وانتفع به خلائق، ولولا إني أعلم منه كراهة الشهرة لأظهرت من محاسنه عجبًا، فأسأل الله أن يزيده من فضله.

الشيخ غنيم

ومنهم الشيخ الصالح العابد الزاهد الشيخ غنيم شيخ قبة السلطان الغوري ﷺ. صحبته سنين فما رأيت عليه شيئًا يشينه في دينه، ونشأ على علم وعمل وديانة وخير. وكف جوارح عن المخالفات، وما سمعته قط يحسد أحدًا من المسلمين على شيء من الدنيا، ولا يستغيبه، وله تهجد بالليل، بحيث لا يراه أحد إلا مصادفة. فأسأل الله أن يزيده علمًا وعملاً ودينًا وزهدًا وصلاحًا.

الشيخ ناصر الدين الصعيدي

ومنهم الشيخ الصالح العالم العامل بعلمه، الخائف من الله ﷻ، ناصر الدين الصعيدي ﷺ. صحبته صحبة قلبية فرأيته على قدم عظيم في الإيمان والخشية والخوف من أهوال يوم القيامة، وله تهجد عظيم بالليل، لا يكاد يغيب عن شيء من المواكب الإلهية من حين العشاء إلى أن يطلع الفجر.

أخذ العلم عن جماعة منهم الشيخ ناصر الدين اللقاني، والشيخ عبد الرحمن الأجهوري، وأجازه أشياخه بالفتوى والتدريس، فدرس في حياة أشياخه وأفتى وانتفع به خلائق.

وما رأيته قط يزاحم على شيء من أمور الدنيا، ولم يتردد إلى بيوت أحد من الظلمة وأعوانهم، بل لم يزل مكبًا على الاشتغال بالعلم والعمل، محبًا للخمول كارها للشهرة، فأسأل الله أن يزيده من فضله، وأن يفسح في أجله للمسلمين.

وقد ذكرت مناقب المالكية في كتاب للفاخر والمآثر، فراجعه.

وأما أصحابنا من علماء مذهب الإمام الشافعي ﷺ فمنهم الشيخ الإمام العالم:

الشيخ ناصر الدين الطبلاوي ﷺ

صحبته نحو خمسين سنة فما رأيت في أقرانه أكثر عبادة لله تعالى منه، لا تكاد تراه إلا في عبادة، إما يقرأ القرآن، وإما يصلى، وإما يعلم الناس العلم. وانتهت إليه الرئاسة في سائر العلوم بعد موت أقرانه. ولما دخلت مصر سنة إحدى عشر وتسعمائة

كان ﷺ مشهورا في مصر بكثرة رؤيته رسول الله ﷺ، وأقبل عليه الخلائق إقبالا كثيرا بسبب ذلك، فأشار عليه بعض الأولياء بإخفاء ذلك، فأخفاه، وليس في مصر الآن أحد يقرأ في سائر العلوم الشرعية وآلاتها إلا هو فقط، وأما غيره فيدرسها في بعضها دون بعض.

وقد عدوا ذلك في جملة كراماته، فإنه من المتبحرين في علم التفسير والقرآن والفقه والحديث والأصول والمعاني والبيان والحساب والمنطق وعلم الكلام وعلم التصوف، وله الباع الطويل في كل هذه العلوم، وما رأيت في مصر أحفظ لمنقول هذه العلوم منه، فكأنها كلها نصب عينيه، وشرح البهجة الوردية شرحين ما وضع مثليهما. جمع فيهما ما في شرحي البهجة لشيخ الإسلام وزاد عليهما ما في شرح الروض وغيره. وولي تدريس الخشابية. وهو من أجل تدريس في مصر، يجتمع في درسه غالب طلبة العلم في مصر، وشهد له الخلائق بأنه أعلم من جميع أقرانه وأكثرهم توضعا، وأحسنهم خلقا، وأكرمهم نفسا، لا يكاد واحد يطلع عليها لكثرة إخفائه لها، ولا يبيت على دينار ولا درهم مع كثرة دخله تبعا لشيخه الشيخ زكريا.

وقد عاشرته مدة عشرين سنة أطالع أنا وإياه على شيخ الإسلام المذكور، فكنت أطالع من طلوع الشمس إلى الظهر، ويطالع هو من الظهر إلى غروب الشمس، فما كنت أظن أن أحدا في مصر أكثر منه جلوسا، فكنت إذا نظرت إلى وجه الشيخ ناصر سررت. وكان النهار الطويل يمضي كأنه لحظة من حسن أدبه وأدب شيخه، ومن حلاوة منطقهما، وكثرة فوائدهما، لاسيما في علم التأليف والوضع، وضم الشكل إلى شكله، وتوطئة الألفاظ.

وبالجملة فأوصافه الجميلة تجل عن تصنيفي وتأليفي، كما يعرف ذلك من كشف الله تعالى عن بصيرته في هضم نفسه، حتى كأن الله تعالى لم يجعل في باطنه شيئا من الأمراض الباطنة، ولا من الظاهرة من الأقوال الرديئة، فإني ما سمعته قط يحسد أحدا من أقرانه، ولا يستغيب أحدا منهم، ولا رأيته قط يتكبر على أحد من المسلمين، بل يرى نفسه أحقر خلق الله ﷻ، يقبل يد الكبير ويد الصغير، ويطلب الدعاء منهم، وما زارني قط وزرته إلا قال: ضع يدك على صدري لعل الله يطهره من الأدناس، والناس عنده كلهم صالحون، لا يكاد يشهد في أحد سوءا أبدا.

ولما افترى بعض الناس الحسدة في جامع الأزهر أنني ادعيت مقام الاجتهاد المطلق، وثارت فتنة عظيمة قال ﷺ : إن ثبت ذلك عن عبد الوهاب فأنا أول من يقلده. ويعمل بمذهبه. وهذا تواضع عظيم ما سمعته من أحد من أهل عصري؛ فإن الأشياخ أجمعوا على أن أعلى مقام في التواضع لطالب العلم أن تسمح نفسه أن يقرأ العلم على أحد من أقرانه، فكيف بمن سمحت نفسه أن يقرأ العلم على شخص من طلبة أقرانه.

فأسأل الله تعالى أن يفسح في أجله، وينفعنا به والمسلمين وببركاته وبركات علومه في الدنيا والآخرة.

الشيخ عبد الحميد السمهودي

ومنهم الشيخ الإمام الكامل الراسخ في العلوم الشرعية والمعقولات الشيخ الصالح الورع الزاهد الشيخ عبد الحميد السمهودي ﷺ. صحبته نيفًا وأربعين سنة فما رأيت عليه شيئًا يشينه في دينه، بل نشأ على العلم والأدب والعبادة والفتوة والكرم وحسن الخلق، وما رأيت في أقرانه أعف منه، ولا أعز نفسًا منه، لا تراه بذل لأحد من الولاة، ولا يزاحم على شيء من الدنيا ومكث مدة طويلة يتجر ويأكل من كسبه، ويطعم فاضل كسبه للأصحاب والمترددين، وتاجر في طبخ السكر مدة، ثم ترك ذلك وأقبل على العلم والعبادة والقناعة وملازمة بيته إلا لضرورة شرعية.

أخذ ﷺ العلوم عن جملة من مشايخ الإسلام كالشيخ نور الدين المحلي، والشيخ برهان الدين بن أبي شريف، والشيخ عبد الحق السنباطي، والشيخ ملا على العجمي. والشيخ كمال الدين الطويل، وتبحر في العلوم، وأجازه أشياخه بالإفتاء والتدريس من نحو خمسين سنة، وما رأيته قط يسئ الظن بأحد من المسلمين. ولا يحسد أحدًا منهم على مال أو إقبال من الخلق، بل هو حافظ للسانه عن ذكر أحد بسوء بغير حق. جميل المعاشرة، مهيب المنظر، يطعم الطعام لكل وارد عليه، ولا يدخر عن ضيفه شيئًا من لطائف الطعام، كثير العفو والصفح عن كل من جنى عليه، لا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح، لم يزل نور العلم طافحًا من ذلك الوجه المنير واللحية النيرة البيضاء، ولو أني أخذت أذكر أوصافه الجميلة لضاق عنها الدفاتر.

فأسأل الله تعالى أن يزيده من فضله، وأن يحشرنا في زمرته. آمين آمين آمين.

الشيخ نجم الدين الغيطي

ومنهم الشيخ الإمام العالم العلامة ذو الأخلاق والأوصاف الجميلة والأخلاق المحمدية، والشيم المرضية، الشيخ نجم الدين الغيطي ﷺ.

صحبته نيفًا وأربعين سنة إلى الآن، فما رأيته، وما وقع بصري على شيء يشينه في دينه، بل نشأ على عفة علم وأدب وحياء وكرم نفس وحسن خلق.

أخذ العلم عن جماعة من مشايخ الإسلام، كالشيخ زكريا والشيخ برهان الدين بن أبي شريف والشيخ عبد الحق السنباطي والشيخ كمال الدين الطويل والشيخ شهاب الدين الرملي، وأجازوه بالإفتاء والتدريس، فأفتى وأفتى في حياة أشياخه بإذنهم، وألقى الله محبته في قلوب الخلق، فلا يكرهه إلا محروم أو منافق.

انتهت إليه الرئاسة في علم التفسير والحديث والتصوف، ولم يزل آمرًا بالمعروف، ناهيًا عن المنكر، يواجه بذلك الأمراء والأكابر، لا يخاف في الله لومة لائم.

ولما وقعت فتنة أخذ وظائف الناس بغير حق من بعض المفتين انتدب لها وواجه الباشات والأمراء بكلام لا يقدر عليه أحد من أقرانه أن يتلفظ به، وكان خمود الفتنة على يديه، ووصل خبره إلى الروم والحجاز والشام، وشكره المسلمون على ذلك.

وتولى مشيخة الصلاحية بجوار الإمام الشافعي، ومشيخة الخانقاه الرناموسية. وهما من أجل وظائف مشايخ الإسلام من غير سؤال منه. وأجمع أهل مصر على جلالته، وما رأيته قط يغتاب أحدًا من أقرانه، ولا غيرهم وآذاه بعض الناس أشد الأذى فلم يقابله بكلمة واحدة، فازداد بذلك هيبة ومحبة في قلوب الناس، وازداد عدوه مقتًا وطردًا وكراهة.

وكتب ﷺ على بعض مؤلفاتي كتابة لم يسبق إليها أحد، لأن هذا المؤلف جمعت فيه نحو ثلاثة آلاف علم إذا سمعه العالم أنكره، ولا يكاد يصدق بتلك العلوم إلا إن رآه. وما رأيت في أقرانه أكثر تواضعًا منه، وما رأيت أحدًا من أولياء مصر إلا وهو يحبه ويجله، لا سيما الشيخ نور الدين لأنه كان من أصحاب الشيخ نور الدين الشوني. وله تهجد في الليل وبكاء وتضرع وخشية من الله ﷻ، حتى إنه يصبح في بعض الليالي ووجهه يضيء كالكوكب الدري، يدرك ذلك من في قلبه نور، ولا يجهله إلا عدو أو حاسد.

ولما افترى عليّ بعض الحسدة أنى ادعيت الاجتهاد المطلق، وأن أتباعي كثرت في مصر، وكتبوا بذلك، وقصد إلى باب السلطان، وقالوا: إن لم تخرجوا عبد الوهاب من مصر وإلا خيف على المملكة. فانتصر لى ﷺ ورد عني الأعداء أشد الرد، وقال: أما وقوع الاجتهاد ممن يدعيه في كل عصر فهو ممكن، ولا ينكره إلا جاهل، فإن من شرط القاضي أن يكون مجتهدًا، وما شرط العلماء ذلك إلا لإمكانه في كل عصر، وأما كثرة أتباعه فلم تزل الفقراء لهم خلائق يعتقدونهم، وأما خشية المنازعة للمملكة فالحس يكذب هؤلاء الحسدة، لأن الرجل لا يمشي في السوق إلا وحده، وهو زاهد في الدنيا تعرض عليه فيردها، فكيف يتصور منه مزاحمة عليها، وأجاب عني بنحو خمسين جوابًا.

ثم إن الذي حمل القصد إلى باب السلطان حصل له استسقاء، ثم فالج، ومات به، وتمزق كيد الحسدة كل تمزق ببركة الشيخ نجم الدين ﷺ، فجزاه الله عني خيرًا وعن المسلمين، وزاده علمًا وعملاً وزهدًا وورعًا وصلاحًا، ولا زال في زيادة حتى يلقى الله وهو عنه راض. آمين اللهم آمين.

وكانت وفاة الشيخ نجم الدين نهار الأربعاء سابع عشر لصفر الخير سنة إحدى وثمانين وتسعمائة.

الشيخ نور الدين الطندتاوي

ومنهم الأخ الصالح العالم الزاهد الكامل الراسخ المحقق الشيخ نور الدين الطندتاوي ﷺ، صحبته نحو سبعة وأربعين سنة فلم أر عليه شيئًا يشينه في دينه. وهو أول من صحبته بجامع الأزهر من أهله، لم يذل لأحد من حين صحبته، عاش على تقوى وصلاح وورع واشتغال بالعلم والعمل، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر. لا يداهن أحدًا.

وأخذ الطريق عن سيدى على المرصفي، والشيخ محمد الشناوي وغيرهما. وأخذ العلم عن جماعة من مشايخ الإسلام، كالشيخ ناصر الدين اللقاني، والشيخ شهاب الدين الرملي حتى تبحر في علوم الشريعة، وأجازوه بالإفتاء والتدريس، فدرس وأفتى في جامع الأزهر في حياة أشياخه، وكانوا يرسلون إليه الأسئلة فيجيب عنها بأحسن جواب.

وكان الشيخ شهاب الدين الرملي يقول: تحقيق المسائل الواقعة في الدرس للشيخ نور الدين الطندتاوي، وجمع أشتات المسائل للشيخ شمس الدين الخطيب الشربيني.

ورأيت رسول الله ﷺ في حياة الشيخ نور الدين الشوني، وشهد له رسول الله ﷺ بالتواضع، وذلك أني رأيت مقصورة الجامع الأزهر قد فرشت كلها بالحرير الأخضر. حتى الحيطان والسقف والعمد، ورأيت الشيخ نور الدين الشوني جالسًا مع رسول الله ﷺ والشيخ نور الدين الطندتاوي جالسًا بجانب الشيخ نور الدين الشوني، ورأيت الشيخ شهاب الدين البلقيني وجماعة مجلس الصلاة على النبي ﷺ جالسين بعيدًا عن رسول الله ﷺ، فقال شخص: يا رسول الله، ما سبب قرب هذا منك ولم يكن أكثرهم صلاة عليك ؟ فقال رسول الله ﷺ: سبب ذلك كثرة تواضعه وهضم نفسه.

وكان شيخنا الشيخ نور الدين رحمه الله يحب الشيخ الطندتاوي ويجله ويكرمه أكثر من سائر أصحابه وأقرانه حتى كأنه ولده البار بوالديه، وكان الشيخ محمد الشناوي شيخنا يحبه ويصفه بصفاء السريرة، وعدم محبته للدنيا ويقول: إن الشيخ نور الدين الطندتاوي من أجل أصحابنا وإخواننا وأكثرهم تواضعًا، ويصفه بعدم الحسد والغل والحقد والكبر والرياء والنفاق وكأن الله تعالى لم يخلق فيه شيئًا من أمراض الطريق.

ولما افترى على بعض الحسدة أنني ادعيت الاجتهاد المطلق، وكان غالب أصحابي يتكلمون في مرضي إلا هو وبعض المتورعين من طلبة العلم، وكذلك لما دس بعض الحسدة في مؤلفاتي كلمات تخالف ظاهر الكتاب والسنة[1] بادر غالب الناس إلى الكلام في عرضى إلا هو والشيخ شمس الدين الخطيب وبعض جماعة. فجزاه الله عني وعن المسلمين خيرًا، فلم يزل يحمل الناس على أحسن المحامل ويقول إذا بلغوه عن أحد كلامًا غير مرضي، هذا كذب على فلان، وحاشا فلان أن ينطق بذلك.

وأعطاه محمد بن بغداد مالاً جزيلاً لحضرته فلم يقبله، فقلت له: فرقه على الأيتام ومجاوري الجامع الأزهر، ففعل.

---

(١) راجع كلامه ﷺ حول الدس في كتبه في تنبيه المغترين وكتاب مختارات من فكر الصوفية في الرد على المخالفين ـ الفصل الأول للإمام الشعراني وكتابه ميزان الكبرى والكتب الثلاثة من تحقيقنا ، نشر مكتبة الثقافة الدينية، باب الشعرية ، القاهرة، وهى متخصصة في نشر التراث الصوفي الأصيل المتمسك بالكتاب والسنة.

وما سمعته مدة صحبته لى يذكر أحدًا من المسلمين بسوء ولا يحسد أحدًا من أقرانه على وظيفة حصلت له. فأسأل الله تعالى أن يزيده من فضله. آمين.

الشيخ شمس الدين الخطيب الشربيني

ومنهم الأخ الصالح العامل المقبل على عبادة ربه ليلاً ونهارًا الشيخ شمس الدين الخطيب الشربيني ﷺ. صحبته نحو أربعين سنة ما رأيت عليه شيئًا يشينه في دينه. ولم أر في أقرانه مثله في حفظ الجوارح، وغفلته في السعي به وتعليمه للناس، لا تجده إلا في مطالعة علم أو صلاة أو قراءة أو صامتًا، يتفكر في أهوال يوم القيامة، وله تهجد في الليل، وصيام كثير في النهار، ولم أسمعه مدة صحبتي له بذكر أحدًا من أقرانه بسوء. ولا يحسد أحدًا منهم على ما آتاه الله تعالى من علم أو مال أو إقبال من الأكابر، ولا غير ذلك من رعونات النفوس، وما رأيت من أقرانه أكثر اعتكافا منه في رمضان وغيره. ومن عادته أن يدخل الجامع الأزهر أول ليلة الصيام فلا يخرج إلا بعد صلاة العيد.

وقد أخبرني ولده سيدى عبد الرحمن أنه لا يتعشى دائمًا في رمضان إلا بعد صلاة التراويح، فيأكل لقيمات يسيرة، ويشرب ماء كثيرًا، وحججت معه حجتين، فما رأيت أحدًا في أقرانه أكثر مشيًا منه، فلايركب إلا بعد تعب شديد، ويعزم عليه الجمّال أن يركب فيأبى رحمة بالجمل.

ورأيت شخصًا سمينًا من طلبة العلم اشتكى جماله لأمير الحج الذى قال له: امش شيئًا عن الجمل في الأرض. فبان الصدق بين الرجلين، مع أن هذا السمين لا يعده الشيخ شمس الدين أنه يصلح أن يكون من طلبته.

ولم يزل من حين يخرج من بركة الحاج يعلم الناس المناسك وآداب الطريق وكيفية القصر والجمع، ويحثهم على الصلاة، وربما يعطي السائل عشاءه ويطوى تلك الليلة، وكان غالب سفر الحج ومدة إقامته بمكة صائمًا لا يفطر في غالب لياليه. يكتفي بشرب الماء من زمزم، وما رأيت أكثر تلاوة للقرآن منه، ولا أكثر طوافًا مدة إقامته بمكة، وطلبت يومًا أن أساويه فلم أقدر على ذلك.

وأما خشوعه وتدبره في القرآن فغريب في أهل مصر، وكذلك حبه للخمول وعدم الشهرة مدة إقامته فلا يكاد واحد يعرفه، لا يخرم إلا وحده، ويجلس بين الفقراء

الذين لا يعبأ بهم فلا يكاد أحد يعرفه إلا بجهد. وغالب من يحج من طلبة العلم ربما يكون بالضد من ذلك، فيود أن أهل مكة يعرفونه، ويبدى لهم العلوم الغريبة، ويجد في نفسه حلاوة من ذلك، وبعضهم يخرج من مكة ممقوتا لريائه ونفاقه في حضرة الله تعالى الخاصة.

وقد رايت من يدعى الصلاح يصرخ في مكة بأنه أعلم من في مصر والشام والروم. وبلغه أن الشريف عزم على زيارتي، فلم يزل يتوسل إليه حتى ترك زيارتي خوفا أن يميل عنه إلى كثرة نصبي وحيلي، فضحكت من ذلك، فإن من قواعد طريقتنا انى لا أمكن أحدًا من الأكابر أن يأتي إلى، وإن علمت عزمه على زيارتي ذهبت إليه أنا. والحمد لله رب العالمين.

اخذ الشيخ شمس الدين العلم عن جماعة من علماء مصر، كالشيخ ناصر الدين اللقاني، والشيخ جمال الدين الصافي، والشيخ ناصر الدين الطبلاوي، والشيخ شهاب الدين الرملي، وتبحر في العلوم على أيديهم. وأجازوه بالإفتاء والتدريس، فدرس وأفتى في حياة أشياخه وانتفع به خلائق لا يحصون. وأجمع أهل مصر على دينه وصلاحه. ووصفوه بالعلم والعمل والزهد، وكثرة النسك والعبادة. وشرح كتاب منهاج الفقه. وكتاب التنبيه شرحين عظيمين، جمع فيهما تحريرات أشياخه بعد الشيخ زكريا. وأقبل الخلائق على كتابتهما وقراءتهما عليه، وما رأيته قط يسعى على شيء من أمور الدنيا، ولا على شيء فيه رئاسة، ولا يزاحم أحدًا على صحبة أحد من الولاة والقضاة. بل ربما لا يعرف أحدًا منهم.

وتفضل عليّ بزيارتي ما لا أحصى له عددًا، ولما عجزت عني مكافأته علمت أن الله تعالى أراد أن يكون له الفضل عليّ، وما رأيت أخف زيارة منه، ولا أكثر أدبًا، وما دق على الباب قط، بل يقف على الباب ساعة، فإن لم يفتح له أحد رجع وقرأ الفاتحة منشرحًا غير متأثر من ذلك. وقل أن يقع مثل ذلك من طلبة العلم، بل يدق بعضهم على الباب، فإن لم يجبه أحد سب، ولا خلى ولا ألفى، وحملني على أسوأ المحامل وأشرها. وربما دخل على هجمًا، ويرى له الفضل على، فلا يخرج من عندي حتى أصير كأني شربت رطلاً من السم، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم..

وقد باسطت الشيخ شمس الدين الخطيب يوما فقلت له: كيف تجئ لمثلي، فلا يفتح لك ولا تتكدر؟ فقال: قد قال الله تعالى: (وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا، هو أزكى لكم) كيف أتغير من حصوله لى؟ فقلت: جزاك الله عن إخوانك خيرا.

وبالجملة فأوصافه الحسنة تجل عن تصنيفي، فأسأله أن يزيده من فضله. ويحشرنا في زمرته مع العلماء العاملين. آمين اللهم آمين.

الشيخ أبو البقاء بن جبيلات

ومنهم الشيخ الصالح العالم الورع الزاهد أبو البقاء بن جبيلات القاضي بجامع الصالح صحبته نحو خمسين سنة فما رأيته زاغ عن الشريعة المحمدية بل نشأ في فقه وعبادة وورع وزهد وتلاوة قرآن وعلم.

أخذ العلم عن جماعة من مشايخ الإسلام، كالشيخ زكريا، والشيخ برهان الدين بن أبى شريف، والشيخ كمال الدين الطويل، والشيخ سعد الدين الذهبي، والشيخ عبد الحق السنباطي، وأجازوه بالإفتاء والتدريس، تولى القضاء بإشارة بعض الأولياء. فكلما عزل نفسه تعيده الولاة إلى القضاء ويسلم الأمر إلى الله تعالى، وأجمع الناس على أنه ليس في مصر الآن مثله، ولا مثل محب الدين المالكي في الدين والورع، وقدموه على جميع أقرانه وقالو: إن القضاء يتحتم على مثله لما علموه من شدة دينه وعدم قبوله الرشوة من أحد مطلقا لا سرا ولا جهرا، هذا على كثرة ضبط جوارحه عن المخالفات. وكثرة تلاوة القرآن في المصحف نهارا وليلا في التهجد، وما ضبطوا عليه قط أنه حسد أحدا ولا ذكره بسوء ولا زاحم على شيء من مناصب الدنيا.

وأخبرني من يخالطه بالليل أنه لم ينم من الليل إلا قليلا، ثم يقوم في دهليز داره. وأخبرني المقدم أحمد الكافوري قال: ما مررت قط مع الوالي في الليل إلا وجدت الشيخ أبا البقاء يتلو القرآن خلف باب داره.

ومما يؤيد ذلك أنني لم أزل أرى الشيخ أبا البقاء ساكنا في قبة عظيمة وسط تربة واسعة. فأول ذلك بحياته وموت جيرانه، لقيامه بالليل وكثرة نومهم. وأخبرني

الشيخ شهاب الدين بن مخلطة صهره أنهم ما ضبطوا عليه قط أنه نام عنه عياله بالليل سوى لحظة واحدة.

ولما حججت سنة ثلاث وخمسين وتسعمائة قال لى أخي سيدي محمد الحنفي الشاذلي: أمرادنا أن نجتمع بأحد من الأولياء بمكة؟ فقلت له: إن هذه حضرة الله الكبرى. فلا يكاد أحد يظهر فيها، ولكن نسأل الله تعالى أن يطلعنا في هذه الليلة على أحد ممن اصطفاه لحضرته في هذا الزمان، ولا يعلم بنفسه، وكنا في الحجر تحت الميزاب في ليلة مقمرة فتواطات رؤيتي بين النائم واليقظان، إذ دخل عليَّ إثنا عشر رجلاً من فتحتي الحجر الغربية، وأمامهم شخص طويل القامة ينادي بأعلى صوته: هؤلاء الاثنا عشر رجلاً ممن اصطفاهم الله لحضرته، ولا يعلمون بأنفسهم، وكان أول داخل منهم الشيخ أبو البقاء هذا، ثم الشيخ حسن الحديدي بجامع الأزهر ثم الشيخ عبد القادر، ثم الشيخ مبارك بسوق اللوق، ثم بقية الجماعة.

فعلمنا بهذه الرؤية مقامه في الولاية الكبرى. وعزل نفسه من القضاء فأخبرت بذلك سيدي على الخواص رحمه الله تعالى فقال لى: كلمه يطلب القضاء بمحكمة جامع الصالح، لقربها من بيت الوالي، ليصير يلاطف أرباب التهم والجرائم، فإن بيت الوالي قطعة من نار جهنم، وأنت جعلك الله رحمة. فسمع منى الشيخ، فلم يزل فيها إلى وقتنا هذا.

وعزله بعض قضاة العساكر لما قالوا له: إن أمره مشغول بالعبادة، ويفرط في المحصول، فوقف أهل مصر للباشا محمد، ومالوا في رده للقضاء ففعل. وقالوا له: يا مولانا ليس في بلدك كلها مثله.

فأسأل الله تعالى أن يزيده من فضله علمًا وعملاً، وزهدًا وورعًا وخشية منه تعالى حتى يلقاه وهو راض عنه.

الشيخ محمد بن شهاب الدين الرملي

ومنهم الشيخ الإمام العالم العلامة المحقق صاحب العلوم المحررة والأخلاق الحسنة، والأعمال المرضية، سيدي محمد، ولد شيخنا الشيخ شهاب الدين الرملي. صحبته من حين كنت أحمله على كتفي إلى وقتنا هذا، فما رأيت عليه شيئًا يشينه

في دينه، ولا كان يلعب في صغره مع الأطفال، بل نشأ على الدين والتقوى والصيانة وحفظ الجوارح ونقاء العرض.

رباه والده فأحسن تربيته على زيادة التوفيق من الله ﷻ. ولما كنت أحمله على كتفي وأنا أقرأ على والده العلم في المدرسة الناصرية كنت أرى عليه لوامح الصلاح والتقوى والتوفيق، وحقق الله تعالى رجاءنا فيه، وأقر عين المحبين، فإنه الآن مرجع أهل مصر في تحرير الفتاوي. وأجمعوا على دينه وصلاحه وورعه وحسن خلقه، وكرم نفسه، ولم يزل بحمد الله في زيادة من ذلك.

أخذ ﷺ العلم عن والده فأغناه عن كثرة التردد والتطفل على غيره، وبث فيه ما كان عنده من الفقه والحديث والتفسير والأصول والنحو والمعاني والبيان وغير ذلك.

وكانت بدايته كما قيل نهاية أبيه، وقد أجمع القوم على أن المريد إذا صح اعتقاده في شيخه وقبل كلامه بالإيمان والتسليم فقد ساواه في العلم، وما بقي لمعلمه عليه إلا مقام الإفاضة عليه من علومه.

وقد بث فيه والده جميع ما كان عنده من تحريرات العلوم، ولما مات والده وجلس يدرس في الجامع الأزهر بعده أبدى لعلماء الجامع الأزهر من علوم والده العجب العجاب، وما تخلف عن درسه إلا من جهل مقداره أو عمه الحسد والمقت.

وقد بلغني أن بعض أصحاب الأنفس صار يرسل بعض طلبته يكتب عن سيدي محمد ما يتكلم به من المسائل المتناقضة، ويكتب له ما يمشي عليه من الترجيح. ثم يصير يلقى ذلك في درسه ويفتي به، ولو أن هذا حضر حلقة سيدي محمد لحصل له خير كثير. ولذلك قالوا لا ينال العلم مستحيي ولا متكبر كما قال الإمام الشافعي: لا ينال هذا العلم بالغنى وعز النفس، وإنما ينال بالفقر وذل النفس.

وسمعت من بعض طلبة والده أنه سمع والده يقول: تركت محمدًا بحمد الله لا يحتاج إلى أحد من علماء مصر إلا في النادر.

ولم يزل ﷺ له الاعتقاد التام في طائفة الصوفية تبعًا لوالده، يجيب فيهم بأحسن جواب. وطالع كتابي "العهود" من أوله إلى آخره ، وكذلك أسماء علوم القرآن، وهي ثلاثة آلاف مسلم. فقدم إليه بعض الحسدة سؤالاً من مضمونه: أني ادعيت

الاجتهاد المطلق، فبادر بعض الناس وأنكر بلوغ أحد في هذا الزمان إلى مثل ذلك، وتوقف الشيخ وقال: ائتوني بالكتاب الذي فيه ذلك، أو بينة عادلة.

فأسأل الله تعالى أن يزيده من فضله آمين.

توفى الشيخ محمد المذكور، في يوم الأحد الثالث عشر من جمادى الأولى سنة اربعة بعد الألف.

الشيخ محمد البكري

ومنهم الشيخ الإمام العالم الراسخ في العلوم الدينية، والمنح المحمدية الكامل ابن الكامل سيدى محمد البكري، وشهرته تغني عن تعريفه، وماذا يقول القائل في حق من أفرغ عليه العلوم إفراغا لم يصح لأحد من أهل عصره فيما نعلم. فالناس أجمعوا على أنه ليس على وجه الأرض أكثر علما منه ولا في غير مصر مثله، فلا ينكر فضله إلا من عمه المقت والحسد. وقد أعطاه الله تعالى التكلم على أحوال السماوات والأرض نقلا وكشفا ويقينا لا ظنا وتخمينا. وهو جدير بقول بعضهم:

وليس على الله بمستنكر　　　أن يجمع العالم في واحد

واجتمعت به مرات، فما رأيت أوسع منه خلقا، ولا أكرم نفسا ولا أجمل معاشرة ولا أحلى منطقا.

درس وأفتى في علم الظاهر والباطن، وأجمع أهل الأمصار على جلالته، ونشأ ﷺ كنشأة والده على التقوى والورع والزهد وعزة النفس حتى أتته الدنيا وهي راغمة. وأعرف من مناقبه ما لا يقدر الأقران على سماعه، ولكن سيظهر ذلك في الدار الآخرة. فإنه بكري بيقين.

وأبو بكر لا يفارق رسول الله ﷺ كما لا يفارق الظل الشاخص ومن كان من رسول الله ﷺ من منزلته لا تحصى مناقبه. ومما يدل على صحة نسبه إلى الإمام أبي بكر الصديق ما رأيته بمكة المشرفة.

وذلك أن بعض الحسدة ذكر سيدي محمد بغيبة فزجرته عن ذلك فلم ينزجر. ثم رأيت الإمام ابا بكر ﷺ وهو يقول لى: جزاك الله عن ولدي خيرًا. فعلمت صحة نسبه بذلك.

وكذلك وقع أن شخصا ذكرني بسوء في حضرة الشيخ أبى الحسن ﷺ وهو ساكت فعتبت عليه في نفسي، فرأيت الإمام أبا بكر ﷺ وهو يقول لى: استغفر الله تعالى عن ولدي ﷺ.

الشيخ نور الدين بن أبي الطباخ

ومنهم الشيخ الإمام العالم العلامة الورع الزاهد الخاشع الخائف من الله ﷻ الشيخ نور الدين بن أبي الطباخ الشافعي.

صحبته نحو عشرين سنة فما رأيت أحدًا أكثر إطلاعًا على مذهب الصحابة والتابعين ومن بعدهم منه، وله في ذلك من الحوادث من المسائل مؤلفات جيدة تذكر في مؤلف من النقول ما تقر به العيون ورأيت فهرسها كراسًا كاملاً، وله الباع الطويل في علم الأصول، لاسيما علم الكلام، فإنه أشعري زمانه فيها.

أخذ ﷺ العلوم عن شيخ الإسلام زكريا، وعن شيخ الإسلام برهان الدين بن أبي شريف وعن شيخ الإسلام كمال الدين الطويل، وعن الشيخ شرف الدين بن زرون وغيرهم.

وأخذ طريق القوم عن جماعة منهم الشيخ نور الدين المرصفي، والشيخ أبو السعود الجارحي وغيرهما. وله في الطرق وقائع عظيمة تؤذن بكماله فيها وبلوغه مبلغ الرجال.

وأخبرني أنه كوشف بمقدار علمه، وله حرص عظيم على إفادة من يجده من أهله أهلاً لها، فإن لم يجد من هو أهل لذلك كتمه عنه.

وأخبرني عن الشيخ شهاب الدين الأذرعي من أكابر الشافعية أنه كان كذلك وربما قام من مجلس المناظرة مغلوبًا وهو يعرف المسألة التي يقطع بها الخصم. إذا لم يجد الخصم لها أهلاً.

ومن خلقه قبول الفائدة ممن لا يصلح تلميذًا له، ثم يصير ينشر ذلك عنه. ويقول: أفادني فلان كيت وكيت. حتى ربما كنت أذكر له فائدة من كلام القوم. فيقول: اكتبها لى، فأفعل، ثم يقرأها ويقول: هذا كلام فلان يكتب بماء حدق العيون.

ومن خلقه محبة الخمول وعدم التظاهر بالأعمال الصالحة حتى يظن طلبته وغالب الناس أنه جاهل.

وكان الشيخ أبو المواهب الشاذلي يقول: إذا بلغ العارف الكمال في العرفان صار غريبًا في الأكوان، لا يعرفه إلا من أشرف على مقامه، وقليل ما هم. ثم قال:

وما غربة الأوطان في شقة النوى ولكنها والله في عـــدم الشكل

فأسأل الله تعالى من فضله أن ينفعني ببركاته في الدنيا والآخرة.

الشيخ شمس الدين العلقمي

ومنهم الشيخ الصالح الإمام العالم العلامة الورع الزاهد الخاشع المهيب الشيخ شمس الدين العلقمي الشافعي ﷺ.

أخذ العلم عن جماعة منهم الشيخ شهاب الدين الرملي، والشيخ ناصر الدين اللقاني وغيرهما، وأجازوه بالفتوى والتدريس، فدرس وأفتى بجامع الأزهر وغيره. وانتفع به جماعة كثيرة في تحقيق العلوم الشرعية والعقلية.

وله الاعتقاد التام في أهل الطريق، ويجيب عنهم بأحسن جواب لمن لا يفهم كلامهم، وله عدة مؤلفات منها ملتقى البحرين جمع فيه كلام الشيخين رضي الله عنهما.

صحبته نحو عشرين سنة فما رأيت عليه شيئًا يشينه في دينه، قوالاً بالحق ناهيًا عن المنكر، ويواجه بذلك الأكابر والأصاغر، لا يخاف في الله لومة لائم، وربما اجتمع عليه خلائق وتعصبوا عليه بالباطل، فنصره الله عليهم.

وله توجه عظيم في قضاء حوائج إخوانه إذا أصاب أحدًا منهم بلاء، لا يتهنأ بنوم ولا عيش حتى يزول ذلك البلاء.

ما سمعته يذكر أحدًا من أقرانه إلا بخير، وعمر عدة جوامع في بلاد الريف. ورتب لها الشعائر وما رأيته قط يزاحم أحدًا من أقرانه على دنيا أو جاه أو صيت، وله تهجد عظيم في الليل، ومناقبه ﷺ كثيرة.

الشيخ شمس الدين الصفدي

ومنهم الشيخ الإمام العالم الصالح النحوي الصوفي الشيخ شمس الدين الصفدي المقدسي الواعظ بالجامع الأزهر وغيره .

صحبته نحو ثلاثين سنة من حين كان شاباً، لم يزل من صغره يحب العزلة عن الناس، مشتغلاً بالعلم والعمل، حافظًا للسانه، مقبلاً على شأنه، حتى تبحر في العلوم الشرعية والعقلية.

وطلب طريق القوم. فاجتمع على سيدى محمد بن عراق[1] وأقبل عليه إقبالاً عظيمًا، وفرح به أشد الفرح، ولم يلتفت إلى الدنيا ولا إلى مناصبها من حين كان صغيرًا إلى وقتنا هذا.

وما رأيته يذكر أحدًا بسوء من المسلمين، ومجالس وعظه كلها خير وبركة وخشوع وأدب، وتغشى الرحمة جميع من حضر فيها. وما رأيته قط يتردد إلى أحد من الولاة والأكابر، ولا يتعرف إلى من لا يعرفه، وله درس عظيم في الجامع الأزهر وغيره. وانتفع به خلائق، فأسأل الله تعالى أن ينفعنا ببركاته في الدنيا والآخرة.

الشيخ ناصر الدين الدمنهوري

ومنهم الأخ الصالح العالم العلامة القائم في دين الله تعالى بالتأييد، لا تأخذه في الله لومة لائم، المهاجر بأولاده وعياله في طلب الزيادة من العلم، الشيخ ناصر الدين الدمنهوري.

---

(١) هو صاحب كتاب تنزيه الشريعة عن الأحاديث الشنيعة الموضوعة.

وما رأيت في عصرنا هذا قط من مهاجر من بلاد في طلب العلم هو وأولاده غيره، وله حرص على اتباع السنة منه، وصدق والله من لقبه بناصر الدين، فإنه يكاد يتميز من الغيظ إذا رأى أحدًا يخالف السنة في قوله أو فعله، وقام في هدم الكنيستين في ناحية لقانة وبلده حتى هدمهما. وعارضه في ذلك جمع من الولاة، وخذلهم الله تعالى ونصره عليهم.

وما رأيت مثله في القيام بحق الأخوة والصحبة والضيوف والواردين عليه في بيته لأن بيته مورد العام والخاص.

افتى ودرس العلم ببلاده، وانتفع به خلائق ثم وصل إلى مصر بقصد الزيادة من العلم، وما رأيته قط يأكل طعام أحد من الولاة وأعوانهم.

وله تهجد عظيم وأوراد عظيمة كثيرة في الليل، جميل المعاشرة، حلو اللسان، كثير الحياء والأدب، لا يكاد يرفع صوته في وجه جليسه.

فأسأل الله تعالى أن يزيده من فضله، وينفعنا ببركاته في الدنيا والآخرة.

الشيخ شهاب الدين الطريتي

ومنهم الأخ الصالح العالم العلامة الكامل الورع الزاهد الشيخ شهاب الدين الطريتي الشافعي ﷺ. نشأ ﷺ على الفقه والزهد في الدنيا والورع والتخلق بالأخلاق المحمدية الحسنة، والتلبس بالشيم المرضية.

صحبته من منذ كان صغيرًا، فما رأيته أعرض عن الاشتغال بالعلم والأدب، ودخل مصر وأنا رجل أطالع في شرح الروض وغيره، فتعلم الخط، وحفظ القرآن والبهجة من مدة يسيرة، وشرع في شرح ذلك على الأشياخ، ففتح الله تعالى عليه فتوحًا عظيمًا، حتى صار يدرس العلم لأمثالي ويفيدهم الترجيحات، فالله تعالى يزيده من فضله.

ومن جملة من أخذ عنهم العلم الشيخ شمس الدين الدواخلي وشيخ الإسلام كمال الدين الطويل. والشيخ شهاب الدين الرملي، والشيخ ناصر الديني اللقاني. وأجازوه بالإفتاء والتدريس، ودرس وأفتى في حياة أشياخه، وانتفع به خلائق لا يحصون في جامع الغمري وغيره.

ومن حين صحبته ما رأيت عليه شيئًا يشينه في دينه، بل لم يزل على المروءة والنهضة والهمة وقضاء حوائج الناس. ويقدمها على مهمات نفسه حتى إنه سافر إلى المحلة الكبرى في قضاء حوائج الفقراء، ويتعصب لهم في الخير، ويعين الفقراء على التزويج ووفاء الديون، وله أعمال سرية لا يطلع عليها أحد إلا الله ﷻ. فأسأل الله تعالى أن يزيده من فضله آمين.

الشيخ شمس الدين الطنيخي

ومنهم الشيخ الإمام الأخ الصالح العالم العلامة المجمع على جلاله وكثرة نفعه للعباد حتى كان سداه ولحمته خير الشيخ شمس الدين الطنيخي الشافعي ﷺ من حين كان بلا لحية حتى شاب فما رأيت إلى الآن عليه شيئًا يشينه في دينه، بل ربى على التقى والطهارة الظاهرة والباطنة، وتخلق بالأخلاق الحسنة، ولم يزل من صغره إلى الآن حافظًا للسانه مقبلاً على شانه، معظمًا لإخوانه، كريم النفس، كثير الحياء والأدب، زاهدًا ورعًا خاشعًا خائفًا من الله ﷻ، يبكي إذا سمع بأحوال الصالحين.

وما رأيته قط يزاحم على شيء من وظائف الدنيا، ولا يتردد إلى أحد من أهلها إلا لضرورة شرعية، وما سمعته قط يذكر أحدًا من المسلمين بسوء.

أخذ ﷺ العلم عن جماعة من الأكابر، منهم: الشيخ ناصر الدين اللقاني. والشيخ شهاب الدين الرملي، وأجازوه بالفتوى والتدريس، فدرس وأفتى وانتفع به خلائق.

وكان والده الشيخ محمود عبدًا صالحًا من أهل القرآن والخير، وذريته بعضها من بعض، وله ولد صالح اسمه عبد الرحمن نشأ على خير وتقوى وكمال وعلم وعمل وقرأ عليّ كتاب السنن الكبرى للبيهقي، فأسأل الله تعالى من فضله أن يرفعه إلى مقدار والده وزيادة، وأن ينفعنا ببركاته وبركات والده، في الدنيا والآخرة.

الشيخ نور الدين القبيلي

ومنهم الشيخ الإمام العلامة المفتي في العلوم النقلية والعقلية الشيخ نور الدين القبيلي، صحبته نحو عشر سنين فرأيته على جانب عظيم من الخشية لله تعالى والبكاء عند سماع القرآن والمواعظ، وله تهجد عظيم في الليل، وأوراد لا يطلع عليها إلا الله تعالى. ثم أهل الكشف، وربما تهجد بنصف القرآن وأكثر في ركعة واحدة كما أخبرني بذلك بعض الصالحين، فازددت فيه محبة.

وله حاشية عظيمة على كتاب المغني، وله الباع الطويل في علم الكلام والعقائد، والغالب عليه أحوال الصالحين الملانية فلا يكاد واحد يعرف له مقامًا، لأن أعماله قلبية وسرية، وقلبه طواف بحضرة الله تعالى، حتى ربما ذهل عن جليسه.

ولولا حجاب المفاخرة على قلوب إخوانه لأبديت من أخلاقه عجبًا. ولكن يكفينا من أعماله الكرم وحسن الخلق، وكثرة الحياء والأدب ومحبة الصالحين وحسن اعتقاده فيهم، وكف جوارحه عن المخالفات، فالله يزيده من فضله أبدًا ما عاش آمين.

الشيخ شهاب الدين بن حجر

ومنهم الشيخ الإمام العالم العلامة المحقق الصالح الناسك الشيخ شهاب الدين بن حجر الشافعي، نزيل الحرم المكي.

أخذ العلم عن مشايخ الإسلام بمصر والحجاز، وانتفع به خلائق لا يحصون. وهو أحد شهودي على الشيخ محمد الشناوي في إذنه لى بتربية المريدين وتلقينهم الذكر.

صحبته ﷺ نحو أربعين سنة فما رأيته قط أعرض عن الاشتغال بالعلم والعمل. صنف ﷺ عدة كتب نافعة محررة في الفقه والأصول والمعقولات، واختصر كتاب الروض لابن المقري وشرحه شرحًا عظيمًا جمع فيه من الفرائد ما لا يوجد في كتب شيخ الإسلام زكريا ولا غيره، حتى عارضه بعض الحسدة فسرقه ورماه في الماء كما قيل، فاستأنف الشرح ثانيًا وكمله، وشرح الإرشاد شرحين عظيمين، وانتفع به خلائق في مصر والحجاز واليمن وغير ذلك: وهو مفتي الحجاز الآن، يقفون كلهم عند قوله.

وله أعمال عظيمة لا يطلع عليها إلا من كان خليًا من الحسد، ومن صغره إلى الآن لم يزاحم على شيء من أمور الدنيا، ولا تردد إلى أحد من الولاة إلا لضرورة شرعية، فأسأل الله تعالى أن يزيده من فضله، وينفعنا ببركاته في الدنيا والآخرة.

الشيخ شمس الدين الفرضي

ومنهم الشيخ الإمام العالم الفقيه: شمس الدين الفرضي السنهوري الشافعي صحبته نحو عشرين سنة فما رأيته على بدعة ولا جالسًا على حدث، وهو دائم التهجد في الليل بربع القرآن، وله اليد الطولى في علم الفرائض والحساب. وشرح الترمذي شرحًا في مجلدين، وله النظم الشائع.

أخذ العلم عن مشايخ الإسلام، وأجازوه بالفتوى والتدريس. منهم شيخ الإسلام زكريا، وشيخ الإسلام كمال الدين الطويل، وعليه المعول الآن في العربية وفي الفتوى، وله خلق عظيم واحتمال للأذى وقناعة، وأكثر أيامه صائمًا لا يفطر، وما دعوته قط لطعام إلا وجدته صائما، وما رأيت في أقرانه أكرم منه نفسًا، فأسأل الله تعالى أن يزيده من فضله، ويحشرنا في زمرته.

الشيخ كمال الدين بن الموقع

ومنهم الشيخ الإمام العالم الزاهد المقبل على عبادة ربه؛ المعتزل عن الناس في بيته امتثالاً لأمر الشارع في ذلك كمال الدين بن الموقع.

صحبته نحو ثلاثين سنة فما رأيت عليه شيئا يشينه في دينه، والغالب عليه الصمت. أخذ العلم عن جماعة من مشايخ الإسلام، وصحب الشيخ أبا الحسن البكري، وتخرج في علم التصوف، وتبحر في علم الأصول والتفسير والقراءات والنحو والمعاني والبيان، وله عدة مؤلفات في هذه العلوم. وأجازه العلماء بالفتوى والتدريس، فدرس العلم مدة ثم انقطع في بيته للعبادة.

وما سمعته يذكر أحدًا بسوء، ولا رأيته يرتدد إلى أحد من الولاة وأبناء الدنيا، ولا يزاحم على شيء من مناصبها. فأسأل الله تعالى أن يزيده من فضله آمين.

الشيخ تقي الدين الأشموني الأقطع

ومنهم الشيخ الإمام العالم الصالح الورع الزاهد الشيخ تقي الدين الأشموني الأقطع الشافعي.

أخذ العلم عن الشيخ برهان الدين بن أبي شريف، وعن الشيخ جلال الدين السيوطي وغيرهما، وأجازوه بالإفتاء والتدريس ببلاد الأشمونية، فدرس فيها وأفتى، ثم قدم مصر واستوطنها، ودرس في المدرسة الخلفانية، نيابة عن الشيخ ناصر الدين الطبلاوي، وفي جامع ابن طولون، وفي جامع يونس خارج قناطر السباع، وأفاد الطلبة علومًا جمة.

صحبته رضي الله عنه نحو عشرين سنة إلى وقتنا هذا، فرأيته يحفظ نقول مذهب الإمام الشافعي عن ظهر قلب، وكان رضي الله عنه في غاية الزهد والورع والخشية من الله عز وجل لا يكاد يسمع شيئًا من القرآن، أو شيئًا من أحوال السلف الصالح إلا ويبكي، ولبس من ثيابي جبة وقميصًا وقلنسوة تفضلاً منه، وقطعت يده ظلمًا في أيام "خاير بك " ملك الأمراء في قصة طويلة رضي الله عنه وحشرنا في زمرته. آمين.

الشيخ جمال الدين بن زكريا الأنصاري

ومنهم الشيخ العالم الصالح الزاهد جمال الدين، ولد شيخنا شيخ الإسلام زكريا الأنصاري رضي الله عنه.

أجمع الناس على صلاحه وزهده وورعه، وما رأيت أصبر على الوحدة منه. صحبته نحو أربعين سنة فلم أره قط مشتغلا بما لا يعنيه في وقت من الأوقات، بل طول نهاره وليله كان مشتغلاً بالعبادة، إما تلاوة قرآن أو علم أو تفسير أو قراءة أوراد أو صامت أو مراقب متفكر في أمر معاده.

وقد ربى في نزاهة وطاعة وعدم خروج عن دائرة والده. وقد اجتمعت به بعد أن دارت لحيته فقال: طول عمري ما خرجت من الدار، ومقصودي أنظر ما بين القصرين وباب زويلة. فقلت: إن شاء الله تعالى يشرب الشيخ الدواء وأمشي معك إلى ما ذكرت.

ثم إن الشيخ كان لا ينفك عن مطالعة العلم والتأليف يومًا واحدًا من حين كف بصره، فمرض الشيخ وشرب دواء وخرجت معه إلى ما طلب، فرأى الكنافة، فقال: ما كنت أظن أن الكنافة تعمل إلا في رمضان.

ثم قال لي: مرادي أرى البحر، فإن عمري ما رأيت البحر ولا المراكب فخرجت لما مرض الشيخ ثاني مرة فصار يتعجب أشد العجب، ثم بعد موت والده لازم خلوة والده في النهار، فلا يركب إلا لزيارة والده أو للبيت، ولا يتردد لأحد مطلقًا.

وهو ممن جعله الله على الأخلاق المحمدية وضبط الجوارح، حتى إن كاتب الشمال في ظني لا يجد شيئًا يكتبه عليه في ليل ولا نهار، لكثرة حضوره مع الله تعالى، وكثرة خوفه.

ودرس العلم بالمدرسة الصلاحية بجوار الإمام الشافعي، ﷺ وبالجملة فأخلاقه وصفاته الجميلة لا تحصى ﷺ.

وحضرت أنا وإياه على والده شرح على رسالة القشيري في التصوف، وكتاب آداب القضاء، وأدب البحث، وشرحه التحرير وغير ذلك، ﷺ، ولطف به، آمين اللهم آمين.

الشيخ شهاب الدين الشنشوري

ومنهم الشيخ الصالح الشيخ شهاب الدين الشنشوري الشافعي ﷺ، صحبته نحو عشر سنين فما رأيت عليه شيئًا يشينه في دينه، وأعماله السرية أكثر من أعماله الجهرية. ودرس العلم بالجامع الأزهر وغيره. والغالب عليه محبة الخفاء، وما رأيته قط يذكر أحدًا من أبناء الدنيا إلا لضرورة.

وما رأيته قط يذكر أحدًا من المسلمين بسوء ولا يغتابه ولا يزاحم على شيء من الدنيا، ولما كنت أسهر في الجامع الأزهر في رياقة الليل فأجده إما مصليًا وإما قارئًا. وإما يطالع العلم، وإما جالسًا واضعًا رأسه في طوقه، فكان يعجبني حاله وحال الشيخ شمس الدين الترجمان، وحال الشيخ ناصر الدين الطبلاوي، وما رأيت أكثر اشتغالاً منه، فأسأل الله أن يزيده من فضله.

الشيخ شمس الدين النبتيتي

ومنهم الشيخ الصالح الورع الشيخ شمس الدين النبتيتي الشافعي ﷺ. صحبته نحو عشرين سنة، وحضرت أنا وإياه على شيخ الإسلام زكريا، فقرأنا شرح المنهج وشرح التحرير وغير ذلك، وأجازه بالفتوى والتدريس، فدرس وأفتى بالجامع الأزهر.

وكان ﷺ عنه عفيفًا لطيفًا ورعًا زاهدًا، خائفًا من الله ﷻ، جميل المعاشرة حسن الخلق، تعلو أصوات الطلبة عليه، ويخاطبونه بألفاظ الجفاء فيتحملهم، وما سمعته ﷺ يذكر أحدًا من المسلمين بسوء. وكان شيخ الإسلام زكريا يحبه أشد المحبة، وكانت له عدة مؤلفات، وما رأيته ﷺ زاحم على وظيفة، ولا سأل أحدًا فيما لا يعنيه.

وكنت إذا رأيت وجهه تذكرت أحوال السلف من النور والبريق الذى كان على وجهه ﷺ.

الشيخ نور الدين المحلى

ومنهم الإمام العالم العلامة الشيخ نور الدين المحلى الشافعي المقيم بالمحلة الكبرى الآن. أخذ العلم عن شيخ الإسلام كمال الدين الطويل، وعن الشيخ شمس الدين المسيري، وعن شيخنا الشيخ شمس الدين الدواخلي بجامع الغمري بالقاهرة، ودرس العلم وأفتى بالمحلة الكبرى، ووعظ الناس، وشرح عدة كتب في فقه الشافعي، وانتفع به خلائق لا يحصون.

وله توجه تام إلى الله تعالى، وتهجد في الليل، ينام الإنس والجن في الليل ولا ينام. وله أوراد عظيمة، ولم يزل من صغره إلى الآن على الأخلاق الحسنة والأدب والحياء، وكف الجوارح عما لا ينبغي، يفرح إذا أدبر عنه الناس إلى الاشتغال على أحد من أقرانه، وهذا من علامة إخلاصه ﷺ . فأسأل الله تعالى أن يزيده من فضله على ممر الأوقات إلى الممات آمين.

مات ﷺ في شهر ذى القعدة، سنة ثلاثين وتسعمائة ودفن في مقبرة المحلة الكبرى ﷺ.

الشيخ شمس الدين المغربي

ومنهم الشيخ الصالح الزاهد العالم العامل الشيخ شمس الدين المغربي الشافعي. المقيم بثغر رشيد، صحبته نحو عشرين سنة، فرأيته على قدم عظيم في العلم والورع والزهد والخشية وحسن السيرة، من حياء وكرم نفس وكثرة أدب.

أخذ العلم عن جماعة من علماء مصر، وأجازوه بالفتوى وتدريس العلم فدرس وأفتى بعد الشيخ شمس الدين، وانتفع به خلائق لا يحصون. ولم يزل مقبلا على العلم والعمل به من صغره إلى وقتنا هذا، يقرى الضيف في بلاده لكل وارد عليه. ويحمل الكل، ويعين على نوائب الدهر، وراثة محمدية، إذا تكلم بكلام يخطف القلوب من حلاوة كلامه. وعلى وجهه خشية العلماء العاملين من كثرة البكاء ورقة القلب.

الشيخ أبو الفتح بن الخلال الفوي

ومنهم الشيخ الإمام العالم العلامة المقبل على عبادة ربه الشيخ أبو الفتح بن الخلال الفوي الشافعي.

صحبته نحو عشرين سنة فما أظن أن كاتب الشمال كتب عليه خطيئة واحدة كثير الصيام والقيام، وحفظ الجوارح، وكف البصر.

أخذ رضي الله عنه العلم عن جماعة منهم الشيخ شهاب الدين الرملي، والشيخ أبى الحسن البكري. وأذن له الشيخ أبو الحسن أن يحرر كتبه بعد موته لما علمه عنه من تحقيق العلم، وما رأيت أصبر منه على الوحدة، أوقاته كلها معمورة بالخير ليلا ونهارا. وما رأيته قط يتردد إلى أحد من أبناء الدنيا، ولا زاحم على وظيفة دنيوية، ولا ذكر أحدا من أقرانه بسوء، ولا حسد أحدا منهم على جاه ﷺ.

الشيخ أبو بكر الجيزى

ومنهم الشيخ الصالح الورع الزاهد الإمام العلامة الشيخ أبو بكر الجيزى الشافعي، صحبته نحو ثلاثين سنة، فما رأيت أحدا من أقرانه على قدمه في حفظ الجوارح وكثرة الصمت والورع والزهد، وربما يمكث ﷺ اليوم الكامل لا يتكلم بكلمة لغو،

أخذ العلم عن جماعة منهم الشيخ شهاب الدين الرملي، وأجازوه بالفتوى والتدريس، ودرس العلم بالجامع الأزهر، وانتفع به خلائق، ومجلسه مجلس علم وأدب وحياء وخشية. زارني ﷺ في مكاني مرة وحصل لى منه لحظ عظيم، ولا أقوم له بجزاء تلك الخطوات، فأسأل الله العظيم أن يحشرنا في زمرته ليأخذ بيدي في يوم الدين، في عرصات القيامة آمين.

الشيخ شمس الدين المحلى

ومنهم الأخ الصالح العلامة الشيخ شمس الدين المحلى الشافعي، أحد طلبة الشيخ شهاب الدين الرملي وغيره، أخذ ﷺ العلم عن جماعات، وتفنن في العلوم، وأجازوه بالفتوى والتدريس، وأفتى وانتفع به خلائق، وظهر علمه وفضله للعام والخاص، وله الاعتقاد التام في طائفة الفقهاء والصوفية، والتهجد العظيم في الليل، جميل المعاشرة، كريم النفس، حسن الأخلاق، ولم يزل في ازدياد إن شاء الله تعالى. صحبته عشر سنين فما رأيت عليه شيئا يشينه في دينه، بل تربى على تقوى وورع وخوف من الله تعالى، ﷺ ولطف به آمين.

الشيخ سلام الفيومي

ومنهم الشيخ الإمام العالم الصالح الورع الزاهد الشيخ سلام الفيومي، صحبته نحو عشرين سنة فما رأيت عليه شيئا يشينه في دينه ﷺ، يحب الخمول، ويكره الشهرة، قليل الكلام، جميل المعاشرة، حسن الاعتقاد في العلماء والصالحين، وما سمعته يذكر أحدا من المسلمين بسوء، ولا يزاحم على شيء من أمور الدنيا، يقتنع بالرغيف اليابس من غير إدام، ولم يزل ﷺ معرضا عن أبناء الدنيا لا يتردد على أحد منهم إلا لضرورة.

أخذ العلم عن جماعة منهم الشيخ العلامة عميرة، والشيخ شهاب الدين الرملي، والشيخ شهاب الدين عبد الحق وجماعة، وتبحر في العلوم على يدهم، وأجازوه بالإفتاء والتدريس، فدرس وأفتى في حياة أشياخه، وانتفع به خلائق، وهو ﷺ من أشد الناس حبا لطائفة الفقراء.

وأخبر رضي الله عنه بأمور يجدها عند مجالستهم تدل على صدق الاعتقاد وقال: إنه يحصل له أنس عظيم إذا جلس عند أحد منهم حتى يمتلئ قلبه أنسا. فأسال الله تعالى أن يزيده من فضله عملا وعلما وزهدا وورعا، وأن ينفعنا ببركاته آمين اللهم آمين.

الشيخ يحيى المسيرى

ومنهم الشيخ الصالح الورع سيدى يحيى للسيري رضي الله عنه، رأس للدرسين بالجامع الأزهر.

نشأ في علم وادب ونسك وعبادة، لى في صحبته من حين كان دون البلوغ، فلم أر عليه شيئا يشينه في دينه، وما سمعته يذكر أحدا بسوء.

أخذ رضي الله عنه العلم عن جماعة من مشايخ الإسلام كالشيخ ناصر الدين اللقاني، والشيخ شهاب الدين الرملي وأضرابهم، وتبحر في العلوم، وشرح منهاج النووى شرحا لطيفا، وجمع فيه فوائد كثيرة، واجازه أشياخه بالإفتاء والتدريس فأفتى ودرس وانتفع به خلائق، وهو من الكرم على جانب عظيم، وله اعتناء عظيم بقضاء حوائج الناس تبعا لوالده كما تقدم ذلك في ترجمته، وله الاعتقاد العظيم في طائفة الصوفية، وتهجد عظيم بالليل.

وأما حلاوة منطقه وحسن عشرته فامر عظيم لا يكاد جليسه يمل من طول مجالسته، وما رأيته قط يزاحم على شيء من أمور الدنيا، ولا يذكر أحدا من أقرانه بسوء، ولا غيرهم، فأسأل الله تعالى أن يزيده من فضله.

الشيخ أحمد الإخنائي

ومنهم الأخ الصالح سيدى أحمد الإخنائي. صحبته نحو نيف وأربعين سنة، فما رأيت عليه شيئا يشينه في دينه، بل نشأ في عفة وخير، وانكباب على العلم والعمل، وحفظ الجوارح من الآفات كريم النفس، جميل المعاشرة، وما سمعته قط يذكر أحدا من أقرانه بسوء، وله تهجد عظيم في الليل، وله حرص عظيم على إخفاء أعماله الصالحة، حتى لا يكاد أحد من إخوانه يطلع على سر منها.

ودمت في جامع الأزهر ليالي كثيرة، فكنت أطوف في الأروقة في الليل، فكنت أجد غالبهم دائمًا إلا هو، فإما يقرأ القرآن بتدبر، وإما يتفكر في أمر معاده ويبكي.

أخذ ﷺ العلم عن جماعة من مشايخ الإسلام، كالشيخ عبد الحق السنباطي والشيخ زكريا، والشيخ برهان الدين بن أبي شريف، والشيخ كمال الدين الطويل، وتبحر على يدهم في العلوم، وأجازه بالإفتاء والتدريس فأفتى ودرس وانتفع به خلائق. فأسأل الله تعالى أن يزيده من فضله آمين.

الشيخ إبراهيم العلقمي

ومنهم الأخ الصالح الورع الزاهد العالم العلامة الشيخ إبراهيم العلقمي. أخذ العلم عن جماعة منهم شيخ الإسلام الشيخ شهاب الدين الرملي، والشيخ ناصر الدين اللقاني، والشيخ شمس الدين العلقمي، والشيخ شهاب الدين البلقيني، وأضرابهم. وبرع في العلوم، وأجازوه بالإفتاء والتدريس.

وصحبته عدة سنين فرأيته على جانب عظيم من المروءة والفقه والزهد والورع وتلاوة القرآن. وما سمعته ﷺ قط يذكر أحدًا من إخوانه ولا غيرهم بسوء، لم يزل مكباً على الاشتغال بالعلم والعمل.

فأسأل الله تعالى أن يزيده من فضله علمًا وعملاً وزهدًا وورعًا وأن يفسح في أجله حتى ينفع المسلمين آمين.

وقد بقي جماعة كثيرة يضيق الزمان عن ذكرهم هنا ولكن ذكرناهم في كتاب المفاخر والمآثر في علماء القرن العاشر. وهو كتاب نفيس. فمن أراد زيادة على ما ذكرنا ههنا فليراجعه والحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله رب العالمين.

وأما من صحبناهم من السادة الحنابلة ﷺ فمنهم سيدنا ومولانا الشيخ الإمام العلامة.

الشيخ تقى الدين

ابن شيخنا ومولانا شيخ الإسلام شهاب الدين الحنبلي الفتوحي، الشهير بابن النجار.

صحبته نحو أربعين سنة فما وجدت عليه شيئًا يشينه في دينه، بل نشأ في عفة وصيانة وأدب وعبادة ونسك.

أخذ ﷺ العلم عن والده شيخ الإسلام المذكور، وعن جماعة من أرباب المذاهب المختلفة، وتبحر في العلوم حتى انتهت إليه الرئاسة في مذهبه، وأجمع الناس على أنه إذا انتقل إلى رحمة الله تعالى مات مذهب الإمام أحمد في مصر، وسمعت هذا القول مرارًا من شيخنا شهاب الدين الرملي رحمه الله تعالى.

وما سمعته قط يستغيب أحدًا من أقرانه ولا غيرهم ولا حسد أحدًا على شيء من أمور الدنيا ولا زاحم عليها. وولى القضاء بسؤال جميع أهل مصر فأشار إليه بعض العلماء بالولاية وقال: بيقين عليك ذلك، فأجاب مصلحة المسلمين، وما رأيت أحلى منه منطقًا ولا أكثر أدبًا مع جليسه حتى يود أنه لا يفارقه ليلاً ولا نهارًا.

وبالجملة فأوصافه الحسنة تجل عن تصنيفي، فأسأل الله تعالى أن يزيده علمًا وعملاً وورعًا وزهدًا إلى أن يلقاه وهو راض عنه. آمين.

الشيخ شهاب الدين البهوتي

ومنهم الإمام العالم الصالح الشيخ شهاب الدين البهوتي، صحبته نحو أربعين سنة، فما رأيت عليه شيئًا يشينه في دينه، فإنه نشأ في عبادة ونسك وخدمة للأولياء. خدم القطب الغوث سيدي محمد الشربيني عشر سنين. ووقع على يديه كرامات وخوارق، وكان الشيخ محمد يحبه حبًا شديدًا. وأخبره أنه إذا مات وغسل لا يأخذ أحد من ماء غسله شيئًا إلا أبرأ الأكمة والأبرص والأجرب، فتسامع أولياء عصره بذلك فصبوا

عنيه نحو اربعين جرة من ماء البحر، فلم يقع منها إلى الأرض نقطة واحدة، فعلموا أن الأولياء نقلوه من على الدكة، وأخذوه للتبرك ﷺ.

أخذ العلوم عن شيخ الإسلام شهاب الدين الشيشيني ومن شيخ الإسلام شهاب الدين الفتوحي وغيرهما، وتبحر في العلوم ﷺ، وانحصر علم المذهب فيه في مصر وقراها، والغالب عليه إخفاء أعماله الزكية تبعًا لشيخه الشيخ محمد الشربيني، فإنه من الملائية ﷺ. له تهجد عظيم في الليل، وغالب أيامه صيام، وما رأيت في أقرانه أعف ولا أزهد منه في الدنيا. وإنما يتظاهر بحبه للدنيا في بعض الأوقات سترًا لحاله، فإني خالطته زمانا مخالطة شديدة وعرفت حاله.

ولما وقع التفتيش على أموال السلطان من جهة العلماء والرزق والأوقاف جاءني وقال لى مقصودي أنهم يفتشوننى أيضًا على الشريعة، وينظر ما نقص من أحكامها فيعيدوه، ويأمر الناس بالعمل به. فكان ذلك سبب تأليفي كتاب «تنبيه المغترين»[1] على ما خالفوا فيه هدى الصحابة والسلف والتابعين والعلماء العاملين. وبينت فيه ما نقص من أعلام الدين

وله ذوق عظيم في طريق القوم، ما أظن أحدًا من علماء مصر شاركه فيه الآن، ويعرف ألقاب القوم كلها.

وقد أرسل لى مرة يقول: إذا سألك أحد حاجة فأشركها بالصباغ. فلم أعرف مراده بالصباغ حتى أعلمني أنه رسول الله ﷺ لأن حضرته ﷺ صباغة لكل من دخلها بالخير لكونه رحمة للعالمين وأما أهل الدوائر الكبرى فيعرفهم ويعرف مراتبهم حتى كأنه تربى بينهم.

فأسأل الله تعالى أن يزيده من فضله ويفسح في أجله لمنافع المسلمين آمين اللهم آمين؟

وأما بقية أصحابنا فقد ذكرناهم في كتابنا المفاخر والمآثر في علماء القرن العاشر فمن أراد زيادة على ذلك فليراجعه والله أعلم .

---

(١) نشر مكتبة الثقافة الدينية باب الشعرية، القاهرة، وسبق الإشارة إليه في هامش سابق.

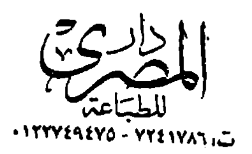
خاتمة

وليكن ذلك آخر كتابنا الطبقات الصغرى وآخر كتابنا لواقح الأنوار القدسية في مناقب العلماء والصوفية إلى عصرنا هذا وهو سنة ثلاث وألف.

واعلم يا أخي أننى لم أذكر من الصحابة والتابعين والعلماء العاملين إلا من له كلام في الطريق أو حال ينهض همة الطالب دون ضد ذلك. كما أننى لم أذكر من الصوفية والعلماء الذين أدركتهم إلا من كان لى بهم صحبة أو قرأت عليهم شيئا من العلوم، أو أخذ على العهد كما مر بيانه في هذا الكتاب وفي مواضع من أثنائه. فما تركت ذكر مناقب من تركت استهانة بحقوقهم وإنما ذلك لما ذكرناه.

وإيضاح ذلك ما ذكره الشيخ عبد العزيز الدريني في منظومته في مناقب العلماء. وذلك أن الزمان لا يخلو من وجود مائة ألف ولى وأربعة وعشرين فأسأل الله أن ينفعنا ببركاتهم وأن يمدنا بمددهم نحن وأخواننا وأن يحشرنا في زمرتهم وتحت لوائهم ولا يخالف بنا عن طريقهم آمين يا رب العالمين.

الفهرس


دار المصري
للطباعة
ت: ٧٢٤١٧٨٦ - ٠١٢٢٣٧٤٩٤٧٥

الناشر
مكتبة الثقافة الدينية
٥٢٦ شارع بورسعيد / القاهرة
ت : ٥٩٢٢٦٢٠ ـ ٥٩٣٨٤١١ فاكس : ٥٩٣٦٢٧٧
ص.ب ٢١ توزيع الظاهر ـ القاهرة
E-mail : alsakafa_alDinaya@hotmail.com